زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: خدي على خدها
اسم المؤلف: زهير أبو سعد

الطبعة الأولى 2017 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع: 9876 / 2017

طُبع في مطبعة Expressprint

خدي على خدها

زهير أبو سعد

مقدمة

الكاتب: زهير ابو سعد

العنوان :خدي على خدها

عندما أنهيت رواية جحيم الياسمين ظننت أني قد انتهيت من أسطر الحزن والألم ومن واقع كتبت حقيقته بأسلحة الحبر والورق....

لم أحتمل أن أقيم هدنة بيني وبين الرواية التي تليها حتى فوجئت بالوجع الاكبر...

الواحد والعشرون من آذار بتوقت الربيع تقام إحتفالات عيد الأم بينما البعض يحتفل بطريقته ليمارس اليتم على الورق،

(خدي على خدها) عن أي خد كان يتحدث الكاتب زهير عن خد حبيبة.....أم إبنة ..... عن خد أي أنثى؟ ومن هذه التى تعنونه رواية كاملة بخدها.....

عن الملكة عن الأم، أمه التي نامت في لحدها، عن الخد الذي التحفه التراب لقد سرد روايته بمشاعر الحب والبنوة، بأسلوب لم يتفلت منه الانسجام بلغة صارخة المعاني وبشوق تغلغل بين الكلمات لنقرأ حروف كتبها وحروف أصر إبداعه أن نشعر بها دون أن نراها، أن نبكي معه ونشاركه حزنه وكأن إصداره لهذه

الرواية مشروع لتقسيم يتمه بالتساوي على القراء، فتارة يأخذنا الى مأتم الوطن بهندام أدبي محمل بسمفونيات الحزن التي لازالت تعزف مقطوعاتها بقلب كل مغترب وقلب كل سجين.....

وتارة في كنف الأمومة الرائدة تحت ركام وتراب ذاك الوطن.....

إن هذه الرواية رواية عاطفية بامتياز لأنها تتكلم عن الأم، وبدأ الكاتب بالسرد عن أمه وعن حبه لها بشكل جيد وعطوف باستعمال صور جميلة في ذلك....

وعندما نتكلم عن الأم يعني نتكلم عن الحب والتضحية، لكن أخذنا الكاتب زهير معه بعد الصفحة 55 الى أحداث سياسية وعسكرية بعيدة كل البعد عن العاطفة والحب محاولاً ربطها مع أحداث الرواية، فحبذا لو سردت هذه الأحداث في نهاية الرواية كمعلومات عامة فإن بعض الأحداث كتل الزعتر وأحداث حماه وتوسيع الحرم المكي وصرف الأموال عليه....فهي أبعدتنا قليلاً عن الأم عن الملكة كما وصفت في الرواية

وكما ذكر الكاتب إستقبال مديرة الدار (مأوى العجزة) له والحديث الذي دار بينهما فلو كان هذا الحوار بينه وبين أحد المسنين في هذه الدار وشرح لو بشكل موجز عن حياتهم التي تذكره بأمه.

مع كلماته التي سردها متوجهاً إلى هذا المأوى وبجدارة استطاع فيها أن يترجم معنى البر والعطف والحنية نحو الأمومة ومن هو الشاب البار ...فنجح بتأنيب كل عاق على عقوقه من خلال تلك الدار المليئة بكهلة قد رماهم أبنائهم العاقين فيها.

رواية تجردت من الخيال تماماً فهي قصر واقعي التصميم بغرف متناسقة لا خيم مشتتة متفلتة خارجة عن مألوفها، فرغم صعودك ونزورلك بين السياسة والعاطفة الا أنها تجبرك بتغير ملامحك مجرد ما إن وقع الكتاب بين يديك.

دام ابداع قلمك أيها الكاتب ورحم الله السيدة هيام أبا زيد وأسكنها فسيح جناته.

شروق المسالخي

إهداء

إلِيهَا وَحدَهَا..

إلى مَن أبكَتنِي سَيلاً مِنَ الحبر..

إلى مَن أوجَعتنِي بينَ كُلِ سَطرٍ و سَطر..

إلى لَيالي الحُزنِ في فِيينَا التِي أعَادَتنِي إلى حِدَادِ مَاضِيهَا..

إلى المَلاكِ الطَاهِر بَل إلى المَلِكَة ، كَما كَانَ يَرُوقُ لأبِي أنْ يَدُعُوهَا..

إلِيهَا وَحدَهَا أُمِي الحَبِيبة..

شَهِيدة الوَطن : هيام أحمد أبَازيد

رَحمهَا الله تَعَالى

1

21 آذَار،

السَاعة 00 : 07 صَبَاحاً،

قَبلَ النُطَفِ الخَالدَة في الأرحَامِ،

و ما بَينَ اكتمَالِ الحَمْلِ و انصِهَارِ الحُلم،

و بَعَد انقطَاعِ حَبلهَا السِري مِن يُتمِي لِحَنَانِ الأُمُومَة،

انَقَطَعَ خَيط الوِصَال و بَدَأتُ أحبُو على سَيفِ الحَياة ، أتُرَاهَا حَياتُنَا تَركَلُنَا بِأقلامِ القَدر ؟ ، فأنَا الذي تَدثَرتُ بِرحِمٍ عَائِمٍ بِالدِمَاء الدَافِئة، تِلكَ الأحشَاءُ المُضَمخةِ بِالحَنَان، أتُراهُا أبرَمَتْ صَفقةَ إجَلاءٍ لأنبَجِسَ على وَرقِ القَضَاءِ مُصَادَفةً !، لم أعَلم بِأنَ يُتمِي سَيوصِلَنِي إلى مَأوى السُطُور، ولم أعِ بَعد بأنَ شَفَقة الحِبر تُجبِرني على كَتَابةَ شِعر، وهِل الشِعرُ يُعِيدُ لَنا مَن رَحَلوا !، لن أسَألَ البَياض الذي أرسُم على مَسَاحَاتِهِ آثَارَ كَلِمَاتي عَن رَحِيلِها المُبَكِر، ذَلِكَ الرَحِيل الذي أفقَدَ تَوازُن الدَمع مِن آمَاقِ يُتمِي، ذَلِكَ الهُجرَان الذي غَادَرَني رَضِيعًا قَبلَ الفِطَام، وهَل أُفطَمُ مِن حُبِهَا وهيَ كُل حَبِيبَاتي ، في كُلِ لَحظَةِ يُتمٍ تَتَدَلى إلى ذَاكِرتي قُطُوفِ عِطرِهَا القَابضُ للأرواَح، جَمَالَ طَلَتِهَا المُرتَب، أنَاقَةِ شَالِهَا

الأسَوَد، نَصاعَ الثَلجِ الدَافئِ على خَدِيهَا، أحَادِيثَ الصَبَاحِ الرِيفية مَع قَهَوةِ جَلسَتِهَا، تراتيلَ سُبحَتِهَا المِئوِية، انصِهَارِ السَكِينةِ على سِجَادَةِ صَلاتِهَا، عَينَاهَا الغَزَالِيتَانِ الشَاهِقَتَانِ بالكَمَال، نُعُومَةَ شَفَتَاهَا الوردِيتَان، تَمَسُكَ انبِلاجِ النُورِ بَينَ اصطفَافِ أسنَانِهَا، إنَهَا النُور على شَاكِلةِ أمّ، إنَهَا تِلكَ المَلِكة كَمَا كَان أبي يَحلو أن يُنَادِيهَا، مَلكتْ أنفَاسَ أبي و مَلَكتْ قُلوبِنَا في آنٍ وَاحِد، أهداهَا الوَطنُ أكفَانَاً مُغمَسة بِالدِمَاء و قَبراً كُتبَ عَلِيهِ أحرُفَ جِراحِنَا ، على شَاهِدَةِ الحُزن المَغرُوسةِ بِالتُراب ، الشَهِيدة:

هِيام أحمَد أبازيد .

أورَثَتنَا يُتماً يُقطِّعُ الأحشَاء و يُمَزِّقُ الأفئِدة،

يُتَماً قَلبَ مِضمَارِ حَياتِنَا أوَجَاعَاً كَوَجَعِ أيوبَ عَلِيهِ السَلام،

و مُنذُ أن سُجِيت في خِدرِهَا الأخِير و أهالوا التُرابَ على بَيَاضِ ابتِسَامِتهَا ، و نَحنُ لا زِلنَا نُهِيلُ الدُموعَ بِكُلِ مَا أُوتيَ اليُتمُ مِن ألم، مَوجُوع أنَا يا أُماه ،

هَل تَسمَعِي زَلازِلَ الحُزنِ في صَدري يا مُعذِّبَتي ! ،

لَقد وصَلَ بِيَ الحَال إلى مُنعَطَفِ الخُرافَة، أزُور الأضرِحة، وأشعِلُ الشُمُوع، وأستَمِعُ لِضَربِ الدُفوف في حَضرَةِ أولِيَاءِ اللهِ الصَالحِين، و أطعِمُ المُساكِين، وأزُورُ من لكِ مَعهُنَ صُحبَة و

مَحَبة ، و أتَوسد جُدرانِ آلِ بِيتِ رَسولِ الله ، عَسى أن تَصِلكِ دَعوة ابنٍ مُتَيّمٍ بِكِ ،

مَجنُونٌ بِكِ يا أُمَّاه ،

أضحَيتِ حَدِيثِي و خَمَرة دَعوتي و خَلوةَ سَجدَتي ،

على حَافةِ الذَاكِرة ، أذكُرُ قَبلَ أعوَام عِندمَا كُنتُ في مَدِينَةِ اربد شَمَالَ الأُردُن و عَرُوسِهَا ، و بَعدَ رَحِيلهَا كُنتُ مُواظِباً لمَجلسِ الصَلاة على النَبي و الحَضرة في أحَدِ مَساجِدِ المَدِينة و كَانَ شَيخُ الطَرِيقة الشَاذُلِية:

مُحَمد إسمَاعِيل الكُردِي.

شَيخُ ذَلِك المَجلس ، أعطَاهُ اللهُ مِنَ الوَقَارِ و الهَيبة ما تَخرُّ لَهُ الجِباه ، و بِسَبَبِ بَعضِ ضُغُوطَاتِ الحَياة تَوقَفتُ عنِ الذَهَابِ إلى المَجلس مَا يُقَارِب الشَهر ، ذَات لَيلة مِن لَيالي الجُمُعة و أنَا غَارقٌ في النَوم، أتَتنِي أُمي في رُؤيا كَلمحِ النُور قَائِلةً بابتِسَامَتِهَا الحَنُونَة:

ـ أنَا زَعلانَة مِنك يا أمي. . .

ـ مَا عَاش يللي بِدو يزَعلِك ليش يا حَبِيبتي!! ؟. . .

ـ ليش مَا بتزُورني يا أمي. . . !!

ـ بَكِيتُ في تِلكَ اللحَظة مُعتَذِراً لهَا:

ـ وينْ بِدي أزُورك يا رُوحي. . . !!

ـ لو بترُوح على مَسجد سِيدَنَا الكُردي بِتلاقِيني هِنيك ،

استِيقَظتُ مَذعُوراً، واستشعَرتُ بِرائِحَتِهَا تُحَلقُ في فَضَاءِ الغُرفَة، لم استَطِع النَوم لَيلَتهَا، ذَهبتُ إلى ذَلِكَ المَسَجد، وقَفتُ على الأعتَاب أتَرقَب مَجِيءَ الشَيخ، وعِندَ مَا بَدَا لي طَيفَهُ مِن بَعِيد بِلحِيةٍ قَد أنَاخ بِحِدَادِهَا الشَيب وعِمَامةً بَيضَاء ونُورٌ مُشتَعِلٌ في وَجهِهِ الجَمِيل ، اقتَربَتُ لأُقَبِّلَ يَدَه ولَكِنه سَحبَهَا بِسُرعة وقالَ لي مُبتَسِماً:

ـ رَحِمَ الله الشَهِيدة أُم مَيسَم، يَعنِي ما بتجِي غير لتِعزِمَك!!!!

وَقفتُ بَينَ غُبارِ الذُهُولِ و الصَدمَة مِن بَعدِ أن أوحَى لي قَلبِي قَولهُ تعَالى:

ألا إنَ أولياءِ اللهِ لا خُوفٌ عَلِيهم و لا هُم يَحزَنُون.

إذاً إنَهُ أحَد صَبَاحَاتِ 21 آذَار،

عَزَفَ المُنَبِه لَحنَ الاستِيقَاظ،

الاستِيقاظ المُعَلق على مِشجَبِ الصَبَاح،

ارتَدَى صَباح فيينَا نُورَهُ الشِتَائِي مِن بَعدِ أن رَمَى بِوِشَاحِ الحِدَاد، وعلى سَرِير الكَسَل تَزحَفُ يَدي بَاحِثَةً عِن ضَجِيجَ المُنَبِه لُتخرِسَ زُعَاقَهُ، سَكَتَ كُلَ شَيء ولَكِنَ شَهوتِي الصَبَاحِية لم تَصمُت بَعد،

قَهوَتي وآخر أخبَار رَادِيو mcd : ، مونت كارلو الدُوَلِية، الإذَاعَة الوَحِيدة التي تَبث سُمُوم العُرُوبة في أُورُوبَا،

بَعثَر التَثَاؤبُ مَلامِحي،

ورَتبت يَداي تَشتُت فِراشِي،

ووَقَفتُ على بِدَايَة يَومِي أحبُوا إلى مَطبَخي،

دَشنتُ مَراسِيم الصَبَاح بِسِيجَارة خَالِية من المَكر،

سِيجَارة وصَدِيقة في آنٍ واحِد،

كَم قَدمتُهَا في حَيَاتي على كَثِيرٍ مِن المُضرين بالصِحة مِن بَني البَشر، أولئِكَ الأقزَام وحُثَالة المُجتَمع العَربِي، كَم رَاهَنوا على سُقُوطِي في مُنزَلَقاتِ الفَاشِلِين، لم أتَقَصد يَوماً التَهجُم عَليهم أو أنْ أرُدَ عَليهم ولو بِكَلِمة تَركتُهم للأيَام لأُشَاهِد بِأُم عَينِي ماذا سَتفَعل بِهم، كُنتُ أنَا الفَائِز بِجَدَارة أمَامَ الشَاشَة الزَمَنِية التي جَعَلتنِي على قَيد القَلم والكِتَابة وجَعَلت الأيَام تَركُلُهم في مَزَابِل الفَاشِلين هُنَا وهُنَاك، فَلَقد شُفِي قَلبِي بِرؤيَاهُم بِلا هَدفٍ ولا مُستَقبَل يَدُورُونَ حَولَ ضَياعِهِم كَما يَدورُ الحِمَار حَولَ الرَحى، ولا زَالَت الأيَام تُقَدِم لَنَا نَمَاذِج مُتَعجرِفة لِبَاسهَا التَكبُر على الخَلقِ و الجُلوسِ على قَارِعَةِ الضَياع لتَبَادُلِ السُخرِية وولائِم الغَيبَة والنَمِيمة، رُبمَا تَكُون البِدَاية سَعِيدة ولَكِن النِهَاية أشدُ نَدَامَة، وفي ضِيافةِ كُلِ الصَبَاحَاتِ

المَحمُومَة بِالطُمُوحِ والتَفاؤل أُشعِلُ سِيجَارَتي كُلَ مَا انبَلَجت أجفَانِي نَخبَ العُلو بِالفَوزِ ونَخبَ سُقَوط مَن كَانوا بِالأمسِ إذَاعَات لِشَلِ الحَركة والمَسِير إلى الأهدَاف، فَأنفُثُ في هَواءِ الشُرُوقِ دُخَانَ البِدَاية لكُلِ إبتِسَامِةِ صَباح، تِلكَ السِيجَارة التي اتخَذتُهَا خَلِيلاً صَامِتاً في مَسِيرَتِي على دَربِ الحَيَاة، فَلتَحيا السَجَائر أمَامَ تَسَاقُطَ الحَاسِدين مِن مَرضَى القُلوب،

لا تَقُل لي كَيفَ تَشرب قَهوتَكَ سَيدي. . . !!

هَذا النَبِيذ الأسوَد يَلِيقُ بِالصَباح،

هَذِهِ الطَاقَة الحَالِكةِ بِالمَرَارة أشرَبُهَا كَمَا هِي،

مَاء ورُذاذ البُنِ فَقَط،

ضَع فِيهَا مِلَعقة مِن السُكَر. . . !!

لا . . . فإنَ جَمَال المَذَاق بِطعمِهِا الخَالي مِن إضَافَاتٍ تَسطُو على مَرَارتِهَا ،

سِيجَارة في رِحَابِ القَهوة هِيَ سَعَادة صَبَاحِية لاقتِرافِ جَرِيمة أدَبِية بَينَ مَشاعِري وقَلَمِي .

2

رَادِيو الصَبَاح ،

لا زِالتْ آذَانِي شَرِهَة للإستِمَاع لآخِر مَا تَوَصَلَ إليهِ المَوت في وَطَنِنَا العَرِبِي عَبرَ إذاعَةِ مونت كارلو الدُوَلِية التي تَبُثُ لنَا مَوَاجعنَا مِن عَاصِمَةِ الحُبّ والجَمَال بَارِيس،

فَلا تُغرِيكَ العَوَاصِم التي تُصَدِّر الحُب والمُوضَة إلى أحلامِ البُؤسَاءِ ولا تُصَدِق أبرَاجَهَا النَاطِحة بالغُرُور، فَكَمَا تَنقُلُ لَنَا آخِرُ صَرعَاتِ العُطُور كَذلِكَ تَنفثُ في آذَانِنَا وَجَبَاتِ الموتِ والرُعب على شَاكِلةِ مُوجَزٍ صَباحِي على الرِيق.

ينَتَابُني شُعُور على أنْ لا أتَنَصت على مَا تُقَدِمُهُ المُذِيعَة الجَزَائِرية ذَات الصَوت الحَسن و رُبَما الشَعر المَنكُوش ، لا أعَلم مَا يَدُورُ خَلفَ صَوتِهَا أو خَلفَ الكَوالِيس المِذيَاعِية ، لعَلَهَا تَكُون فَائِقَةِ الجَمال ، و مَا أدرَانِي. . . !!!

حَطت أصابِعي على مَكبس المِذيَاع لترتَفِع أغنِية للفَنَانة الرَاحِلة العِملاقَة:

فَايزة أحمَد.

سِت الحَبَايب يا حَبِيبَة. .

يا أغلى مِن رُوحي و دَمِي. .

يا حَنِينَة و كُلكْ طِيبَة. .

يا رَبِي يخَلِيكِ يا أُمي. .

يا سِت الحَبايبْ يا حَبِيبة. .

يا حَبِيبَة . . يا حَبِيبة . . يا حَبِيبَة. .

زَمَان . . زَمَان سهِرتِ و تعِبتِ. .

و شِلتِي مِن عُمري لَيَالي. .

و لِسه بَرضو دِلوقتي بتحمِلي الهَمِ لَيَالي. .

أنَام و تسهَري. .

و تبَاتي تفكَري. .

و تصحِي مِن الأذَان و تِجي تشَقَري. .

يا رَبِي يخَلِيكي يا أُمي. .

إجتَاحَت تَحتَ شَرَاشِفَ جِلدي قَشعَرِيرَة مَصدَرُهَا مَا وُورِيَ في مَقبَرةِ الذَاكِرة ، إيَاكَ أنْ تُصَدِق تِلكَ الأضرِحة الجَاثِمَة على شَفِير الذَاكِرة ، فَلِيسَ كُل مَا يُدفَن يُنسَى بِهَذِهِ السُهُولةَ و العَفوِية ، فَكَيفَ لو كَانَ تَحتَ شَاهِدَاتِهَا أسمَاءٌ خَلَدوا وُجُودكَ على هَذِهِ البَسِيطة ! ، وكَيفَ لو كَانَت هَذِهِ الأجسَاد مَبعَثَ فَخرٍ بِالنِسبة لاسمِكَ ! ، وكَيفَ

لو أنَ هَذِهِ الأروَاح مِن نَفسِ السُلَالة التي تَشَرَبتْ مِنَها رُوحكَ ! ، لنْ تَنسَى ذَلِكَ النَبع المُتَدَفِق في جَدَاوِل الحُب ، و كَيفَ لا و هُم مَن عَلمَك أنْ تَحبو على رُبَى الحُب ! ، لنْ تَنجُوا مِن رَوائحَ الذَاكِرة و لنْ تُشفى من أطيَافِهَا المُتَرَبِعة في مُخيّلتِكَ،

سَتَبقى تُلاحِقُكَ ابتِسَامَاتهم،

بِكُلِ مَا أُوتِيتْ الذَاكِرة مِن يَقَظَة،

سَوفَ تَتَبعُكَ فَوضى ضَحَكاتِهم على جِياد التَحري،

سَوفَ يُطَارِدُونكَ بِحَنَانِهِم حتى تَبقى أسِيراً في مِصِيدَةِ المَاضِي، لنْ تَنجُوا مِنْ تَمسُكِهِم بِتَفَاصِيل مُستقبَلِكَ، سَتَجدُ صُورهُم في كُلِ جُرعَةِ حُبّ، في كُلِ لَمحَةِ أمل، في مُنزَلقَاتِ الفَشل، في دَهَالِيز السَعَادة، وبَينَ أسمَائِكَ الوَهمِية، وحَولَ مُفرَدَاتِكَ الجُنُونِية، وفي مَوَاطِن الضِياع، وإغتِرابِكَ المُشَتت، وقَبلَ أنْ تَخطُوا إلى النَجَاح، وبَعدَ أن تَنجوا مِنَ الكَوارِث، وعِندَمَا تَصِلُ إلى مُبتَغَاك، وأمَامَ كُلِ دَمعَة، وخَلفَ كُلِ ألم، وبِجَانِبِ كُلِ وَجع،

سَتَعِي بِأنكَ مِن غَيرِهم أنتَ جَائِع،

سَتفَهم بِأن رَحِيلهم ظَمأٌ يَجتَاحُ عُمركَ،

سَتُدرِك بِدِفئِهِم وأنتَ في أقَصى دَرَجَات ارتِجَافِكَ،

سَتشعُر بِحَجمِ الأمَانِ وأنت تَتَلوى في طُرُقَاتِ الرُعب،

سَتَحسُ بِتَجسُسِهِم الغَائِر على أحَلامِك المُمَزَقة في الشَتَات،

لن يَتركُوكَ وشَأنَك،

أنتَ يا مَن قَطَعتَ مِن الدَهرِ شَيباً وأنْتَ في عُنفُوانِ يُتمِكَ صَدِقنِي بِأنَهُم لن يُغَادِرُوكَ حَتى تُغَادِرَ هَذِهِ الدُنيا مِن بَعدِ أن تَستُوطِن ذَاكِرةِ مَنْ أحبَكَ ومَن كَرِهَك وظَلمَكَ وظَلمتَهُ،

أنتَ المُعَلق بِخِيطِ مَاضِيهِم سُتُكفَن يَوماً مِنَ أيَامِ الذَاكِرة بِهم، لِيستقبِلوا فَلذةِ كَبِدِهم الذي سَطا على قَارِعَةِ رأسِهِ سَنَابِل الشَيب،

لا تَذكُرَهُم بِسوء،

فَلكَ مَعهُم لِقاء يَومَ تَصِير الوِلدَانُ شِيباً،

كُنْ طَيبَ العَهدِ بِهم،

كُنْ طَيبَ النَبضِ لَهُم،

أنثُر مَحَاسِنَ تَجَاعِيدهُم على مَسامِع السَمَاء،

لا تَكُن ضَعِيفَ البَرِ بِهم،

فَمن رأى مِنكُم أُمَهُ فَليُبرهُا بِخدمَتِهَا، فَمنْ لم يَستَطع فَبِلِسَانِهِ ، فَمنْ لم يَستَطِع فَبِقَلبهِ، فَمنْ لم يَستَطع فَبِقَلَمهِ وذَلِكَ أضعَفُ الإيمَان.

وتَحتَ وَقعِ هَذهِ العَاصِفة مِن المشَاعِر التي تَزخُ مِن غُيومِ المِذياعِ إلى أرضِ قَلبي، لتَعُود بِي الذَاكِرة إلى الكَاتِب والشَاعِر والمُمَثِل العَظِيم : حُسِين السَيد رَحِمَهُ الله.

وفي زِيارة إلى وَالدَتِهِ قَبَل لَيلةِ عِيد الأُم في أحَدِ ضَواحِي القَاهِرة الشَعبِية، حَيثُ كَانَت تَعِيش في أحَدِ الأبنِية في الدور السَادِس، وبَعدَ أنْ وَصَلَ إلى بَابِ مَنزِلِهَا نَسِي أنَها ليلة عِيد الأُم ونَسِي إحضَارِ هَدِية لَهَا، وكَانَ مِنَ الصَعبِ نُزول السُلم والصُعود عَليهِ مَرةً أُخرى، فَوَقفَ على أعتَابِ بيتهَا وأخرجَ وَرقَة وقَلماً وبَدَأ يَكتُب على وَرَقَةِ الصِدقِ والمَحَبة:

سِت الحَبَايب يا حَبِيبَة. .

يا أغلى مِن رُوحي و دَمِي. .

يا حَنِينَة و كُلك طِيبَة. .

يا رَبِي يخَلِيكِ يا أُمي. .

يا سِت الحَبايبْ يا حَبِيبة. .

يا حَبِيبَة . . يا حَبِيبة . . يا حَبِيبَة. .

زَمَان . . زَمَان سهِرتِ و تعِبتِ. .

و شِلتِ مِن عُمري لَيَالي. .

و لِسه بَرضو دِلوقتي بتحمِلي الهَمِ لَيَالي. .

أنَام و تسهَري. .

و تبَاتي تفكَري. .

و تصحِي مِن الأذَان و تِجي تشَقَري. .

يا رَبِي يخَلِيكي يا أُمي. .

و بَعدَ أن كَتَبَهَا بِخَمسَةِ دَقَائِق ، طَرقَ حُسِين السَيد بَاب شِقتِهَا، فَتَحتْ لهُ البَاب و بَدأ بِكُل عَفوية و مَحَبة يُسمعُهَا القَصِيدة بِحبرِهَا وحُبِهَا ومَشاعِرهَا ودُمُوعِ البِرِ لَهَا، فابتَهَجت وفَرِحتْ الأُم بِهَا جِداً، ووَعدَهَا بِأَنَهَا سَوفَ تَسمَعهَا في اليومِ التَالي عَبرَ الإذَاعةِ المَصرِية بِصوتٍ غِنَائيٍ جَمِيل، وقَالَهَا بِشكلٍ عَفويٍ دُونَ أنْ يَدري كَيفَ سَيَفي بِوَعدهِ،

ثُمَ اتَصَل حُسَين السَيد على المُوسِيقار الكَبِير:

مُحَمَد عَبد الوَهَاب . رَحمَهُ الله.

وأعطَاهُ الكِلمَات عَبرَ الهَاتِف، فأُعجِبَ الأُستَاذ مُحَمد عَبد الوَهَاب كَثِيراً بِالكَلِمات، وقَامَ بِتَلحِينِهَا في دَقَائِق مَعدُودَات، ثُمَ اتصَل أُستَاذُنَا مُحَمد عَبد الوَهَاب بالمُطرِبة الرَائِعة:

فَايزة أحمَد . رَحمَهَا الله.

ودَعَاهَا لِسَمَاعِ الأُغنِية، فتَمرستْ عَليهَا وحَفِظت كَلمَاتهَا، وفي مَساءِ عِيد الأُم غَنتَها عَبرَ الإذَاعَة المَصرِية ليسَمعَ صَدَاهَا كُلَ مَن تَعلقَ قَلبَهُ بِأُمِهِ.

وهَكَذَا وَفى حُسِين السَيد بِوعدِهِ لِأُمِهِ .

3

خَمس دَقَائِق فَقط،

خَمس دَقَائِق لكِتَابَة قَصِيدة،

خَمس دَقَائِق لتِلحِينِهَا ودوزَنتِهَا،

خَمس سَاعَات للتَدرُبَ على وَفَائِهَا،

خَمسَ عَشرةَ سَاعَة لتَصدحُ عَبرَ المِذياع،

خَمسَة عُقُود من بَعدَ فَنَاءِ كَتبِهَا ومُلحِنِهَا ومُغَنِيهَا،

لا زَالتْ الأجيَال تَتَنَاقِل كَلِمَاتِهَا كَابِراً عَن كَابِر و دَمعَة عن دَمَعة، رُبَمَا لم تَعرف الأجيَال تَفَاصِيل وُجُودَهَا في كُلِ مُنَاسَبَةِ أُم، و لكِن عَلموا بِأنَ فِيهَا مِن الدِفئِ والمَحَبة مَا يُوَازِي البِر، على مَطحَنَةِ العَواطِف المُتَقِدة وفي مُوقَدَةِ صَوتِ فَايزة أحمَد لم ألحَظ سَيَلانِ الدَمعِ على خَدَي، حَتى أنسَتنِي سِيجَارَتِي مِنْ بَعدِ أنْ أضحَت رَمَاداً، حتَى إنَاءَ القَهوة قَد جَفَ من حَرارةِ النَارِ التي تَلتَهمُ مَعدَنَهُ، أيُعقَل أنْ يُبكِينِي الحَنِين !! ،

هِيَ التِي قَالتْ لي يَوماً:

إنَ الله لم يَرزقنِي إنَاثًا مَع رَغبَتِي بِوجُود أخُتٍ لَكُم، ولكِنْ رَزقَنِي بِقَلبٍ بَارٍ كَقَلبِك ، عِندِي إياك بِإنَاثِ الكونِ بِأكمَلِهِ.

لَم أصنَع لَهَا المُعجِزَات البَتَة،

ولَكِن كُنتُ لَهَا ابناً وأخاً و أباً وصَدِيقاً، أُرَافِقُهَا أينمَا ذَهَبت، وأُخبئُ في بِئرِي أسرَارَهَا، أُهيئُ لَهَا مُتَطلبَاتَها هِيَ التِي نَظَرتْ إليَّ قَبَلَ رَحِيلِهَا بِأيام مُبتَسِمةً في وَجهي قَائِلةً:

رَبِي يِرضَى عَليك يا أُمِي لم تَضعْ تَربِيَتي سُدى.

أعلَنَت المُذِيعة ذَات اللهَجة الجَزائِرية المُتَدَاخِلة بِتَطفُلٍ عَرَبِي إنتِهَاء الأُغنِية مُعلِنَةً بِصَوتِهَا البَشُوش:

كُلَ عَام وأُمَهَات الوَطَن العَرَبي بِكُلِ خَير.

إذاً اليَوم هُوَ عِيد الأُم، 21 آذار.

إنتَابَتني في الحَلقِ غَصَة يُتمٍ لو وزِعَتْ على هَذِهِ البَسِيطة لتَشَردوا أيتَاماً،

أيُهَا التُراب الشَرِه،

أيتهُا القُبور الجَاثِمة على الحُب،

يا مَن تَسَلقتُم على سُلمَ السَمَاء الإلَهِي،

يَا أيتُهَا الدِيدَان المُتَرقِبة جُثَثَ الأُمهَاتِ،

هَل بَينَكُم رَسُولاً رَؤوف يُبَلغُ تِلك الرَاقِدة في لحَدِ موتِهَا بِأنَ قَلبِي ضَاقَ شَوقاً لِرُؤيَاهَا، لأحتِضَن صَدرهَا، لأستِنشَق عَبقَ نَقَائِهَا، لم أتَعثَر بِاليُتمِ عند رَحِيلهَا وحَسبْ،

كُل شِيءٍ فِيَّ تَعطَلَ يُتماً،
حَتَى اللِسان لم يَعُد يَنطق : يُمَّة
أُيعقَل بأنِي لنْ أرَاكِ إلا في يَومِ الزِحَام !!! ،
وآآآ شَوقَاه . . . . وآآآ أُمَاه. . .

عُدتُ وأشعَلتُ سِيجَارة الأشَواقِ نَافِثاً دُخَان الفَقد،
وأعلَنتُ حِدَادَ صَبَاحِي بِقَهوَتِي الخَالِية مِن الفَرح، أحتَسِي مَرَارَتَهَا بِفَنَاجين الحَنِين، في هَذَا الصَباح المُفعَم بِالبِر أينَ تُراهُ سَيَسِير بِي قَلَمِي وفي أي مَحطَة أمُومِية سَيقِفُ تَحتَ حِبرِهَا الوَرق ! ، أغلَقتُ المِذيَاع في وَجهِ الحُزن، ورُحتُ أستَجمعُ المَاضِي في مُنفَرِدَاتِ الذَاكِرة، وأحشُدُ الكَلِمَاتِ على السُطُور لأكُتبكِ،
نَعم سَأكتُبكِ،
سَأستخرجُ مِن دِمَاءِ الألمِ مِسكاً،
ومِن جِراح القُلوبِ رُوحاً تُشبهكِ،
لأُخَلِدَ ذكرَاكِ مَاراً في كُلِ مَنَابعِ الشَوقِ،
حَاجاً إلى كُلِ منَافِذ حَنَانِك حَتى شَهقتِ نَفَسَكِ الأخِير،
أنتِ مَن عَلمتني أنْ أكتُب،
وكَيفَ لا أكتُبُكِ يا حِبرَ رُوحِيَ السِري ! ،

ولكِنْ مِنْ أين أبدَأُ بِكِ !

سَأبدَأُ مِن النِهَاية،

مِن مَنَازِلِ الحَياة في العَاصِمة النمسَاوِية فِيينَا:

Häuser zum Leben

الفَرق بينَ الدُول التي تَتَغَنى بألحَانِ التَدَيُن وتَتَبَجح بِرَوابِطِهَا الإجتمَاعِية في تَسمِية الجَمعِياتِ السَكَنِية التي يَقضِي فِيهَا العَجَزة آخِر مَرَاحِل العُمر هُوَ الفَرق بِأم عَينِهِ بينَ الدُولِ الغَربِية المُتَفَكِكَة إجتِمَاعِياً و رُوحِياً،

مَنَازِلِ الحَياة. . .

تُعَد هَذِهِ المَنَازِل مَسكَنًا لإيواءِ المُسِنِين، تَبعُد عَن مَنزِلي خَمس دَقَائِق مَشياً في العَاصِمة فِيينَا مِنَ الحَي السَابِع، كُنتُ ولا زِلتُ أسِيرُ ذَهَاباً وإيَاباً مِن تِلك البَوابَة التي كُتِبَ عَلِيهَا:

مَنَازِل الحَياة.

لم أكُن أعلَم بِحَجمِ الآلامِ المُتَرَاكِمة في أمعَاءِ تِلكَ المَنَازِل التي يُطلِقُ عَليهَا النمسَاويونَ بمَنَازِلِ الحَيَاة ! ،

حَيَاة . . !

أيَةُ حَيَاة هَذِهِ التي تُقَدِمُ الأُمَهَات إلى تَوَابِيتِ المَوتِ بِطَرِيقَة إستفزَازِية وبِحُجَةِ الرِعَايَة ! ،

كُلَ يَومٍ أخطُو مِن أمَامِ بَوابَةِ مَنَازِلِ الحَياة التي تَخلو مِن أعتَابِهَا أيَةُ حَركَة تَدُلُ على الحَياة،

أتسَاءلُ،

كَم مِنَ أُمٍ أخَاطَتْ أكفَانَ حُزنِهَا على أبنَائِهَا.. !

و كَم مِن الدُمُوعِ أُهدِرت على الخُدُودِ المُتَجَعِدة قَهراً.. !

و كَم مِن أجفَانٍ غَطت مِلحَ الوَجع وأذَابَتهُ إذلَالاً.. !

و كَم مِن قِصَصٍ مُصَفَدة في الحُلقوم تَتَوَجسُ قُدُومِ المَوتِ.. !

هَل هَذِهِ الحَياة التي كُنَ يحلُمنَ بِهَا يا تُرى.. !

وبَعدَ هَذِهِ التَسَاؤلاتِ المُترَعة بمَخَاضِ الأُمُومَة،

عَزمتُ أمرِي على زِيارَةِ الدَار، عَسَانِي أجِدُ لِجَدَلِيةِ أسئلَتِي جَوَاباً يَسِدُ جُوعَ تَطَفُلي، أو لَعَلي أجِدُ أُمِي هُنَاك،

هِيَ التي لم يتَبخَر طَيفُهَا البَتَة في كُلِ حَرَكة وسَكَنة،

رِيحُهَا في كُلِ شُقُوقِ حَيَاتي تُطَارِدُ نَبضَاتِي، وتُقَلّب أيَامِي، تَخَيل بِأنَ لَهَا في بَيتي أكثَرُ مِن صُورة، ولَهَا في قَلبي أكثَرُ مِن خَفقة،

عَامَانِ أضَعتُ مِنْ شَبَابِ حُزناً وتَعَباً،

عَامَانِ حِدَاداً وألَماً مُمَزِقاً للسَاعَاتِ ولطِمَاً للأيَامِ،

أضحَيتُ كَمجنُونِ ليلى،

تَجِدَنِي في مَحطَاتِ المِترو، وفي الأنفَاقِ، والحَدَائِقِ العَامة، وأمَامَ المَدَارس الابتِدَائِية، أبحَثُ عن مَشَاهِد الأُمَهَات،

وشُحُوبة أثوَابَهِنَ، وجُعُودَةِ وجُوهِهِنَ، وقِلةِ حَركَتِهِنَ، وذَلِكَ الصَمتُ ودُوارِ الشُرود، والنَظَرِ إلى الأشِياءِ بأعيُنِ السُقُوط، وأحَادِيثِ المَاضِي المُتَبخِرة ، وضَحكَاتٍ بائِسَاتٍ، وأسنَانٍ بالِياتٍ، وشَيبٌ طَاغٍ، وأمرَاضٍ مُزمِنة، وتَمعُنٍ مُرِيب بِآخِرِ مَشَاهِدِ الحَياة، في الغَرب:

أُمَهَات على حَافةِ الشَيب، يجُبنَ الطُرُقَات تَحدِياً لأسِرةِ المَوتِ، مُبتَهِجَاتٍ بِبَريقِ الحُلِي الهَادِئ، مُشرِقَات بِثِياب شَبَابِية كلاسِيكِية، مُتَهَلِلات بِأصبِغَةِ الشَعر الأشقَر،

لم يَعُد هُنَاك مُتَسع للحَياة، هَكَذَا فَهِمَت الأُم الغَربِية مِن بَعدِ أنْ دَفَعَ بِهَا الزَمنُ خَمسينَ رَبِيعاً مِنَ الإنتَاج، ولكَأنَ الهَرم قَالَ لَهَا:

إبتَسِمِي مَدَام وتَبرَجِي واعُرضِي مُقتَنَياتِكِ الجَمَالِية قَبلَ أن تَتَشَاجر عَليها الجمعِيات الخَيرية بَعدَ مَمَاتكِ.

4

ارتَدَيتُ مِعطَفَ آلامِي،
وحَملتُ حَقِيبَتِي التي لا تُفَارِقُ ظَهرِي،
كُنتُ دَائِمَاً على سَفر ، مُتَأهِباً للرَحِيل المُرَقع ، فلا وَطَنَ لي بَعدَ اليَوم مِن بَعدِ أن رَحلتِ إلى مَأواكِ التُرابِي ، كُنتِ أنتِ وَطَنِي و كُنتُ أنا لاجِئاً على صَدرَكِ ، مُتَسولاً على أبخِرَةِ عِطرِكِ ، مَفتُونَاً بآخِرِ مَعَاقِلِ صَمتِكِ ، مُخَدرَاً بِينَ فَواصِلِ نَظَراتكِ ، ألتَهِمُ السَكِينَة في حَرمِ أحَادِيثُكِ إلتِهَامَاً، أتَجسَسُ على ذَلِكَ السُكُونِ الرَاقِدُ بَينَ شَفَتِكِ ، و في حَضرَتَكِ كُلَ مَا في المَكَان يأخُذُني إلى اللا مَكَانْ، الأمكِنة تَتَلاشَى في أمَاكِنِ وجُودكِ يا يُمَّة.
أقِفُ على عَتَبةِ البَاب مُتَجِهَاً إلى مَأوى العَجَزة أو إلى مَنَازِلِ الحَياة ، سَالِكَاً طَيفَهَا بِكُلِ مَلامِحِ اليُتمِ ، نَاثِراً على قَارعَةِ الطَرِيق بَقَايَا حَنِين ، فَأنَا لستُ حَجر ، أنَا مُكَونٌ مِن لَحمٍ و عَظمٍ و مَشَاعِرٍ ورُوحٍ و مِنكِ و مِن كُلكِ .
رَاحت الأرصِفة تَتَقاذَفَني مُعلِنةً تَضامنهَا مَعَ الدُولِ العَربِية ، التي أذاقتنَا مِنَ الذُلِ قَهراً لا تَتَحملَهُ الجِبَال، كُنتُ أظنُ بِأنَنَا إخوة بِالدَمِ والقَضِية، ولكِن مُخَيمَاتِ المَهَانةِ تَحدَثَت بِمَا فِيهَا الكِفَاية، وإن لم

تُصَدق فإنَ مُخَيماتِ الأردنْ لهَا ألسِنة تَشتمُ العَربْ بِكُلِ مَا أُوتِيَ الذُلُ مِن احتِقار، خُذ مَثَلاً:

مُخَيم الأزرَق في الأُردُن ، عِبَارة عَن سِجنٍ بِمَسَاحَاتِهِ القَاتِلة لكَرامة الإنسَانِ أو رُبمَا الحَيوان لا يَرضى العَيش بِها، فَلَقد أصدَرَت صَحِيفة الشَرقِ الأوسَط في 21 مَارِس مِن عَامِ 2017م في عَدَدِهَا . 13992 ذَاتَ صَباح مَقَالاً دَسِمَاً و مُفعَمَاً بالضَحكِ عنوَانُهُ:

مُخَيمِ الأزرَق في الأُردُن يَمنحُ للاجِئينَ السُورِيين أمَلاً جَدِيداً.

رَكزْ مَعِي على كَلمَةِ : أمَلاً !..

لَقد كَانَ أملُنَا أكبَر مِنَ الخِيامِ الجَاثِمَة على الرِمَالِ العَربِية، فَلم نَكُنْ نَرغَبُ بِالمُكُوثِ في الدُولِ المُجَاوِرة البَتَة، ولم نَأتِ لنُشَارِكهم خُبزهم ، و لم نَلجَأ لنَترَبع على أحلامِهم، كُنَا بِحَاجَة إلى كَرَامة، وكُنَا وَلِيمة مَحشُوة بالدَسَمِ لتَتَسول الدُولِ العَربِية على أبوَابِ الأُمَمِ المُتَحِدة لحشُوِ خَزَائنَهم مِن تَعَاسَتنَا ، فَكَان البُؤسِ الذي تُصورَهُ كَامِيراتِ الفَضائِياتِ أشبَه بِفضائِحٍ عَرَبِية ، لم يَعُد هُنَاكَ حَياء، فلا تُغرِيكَ العَمَائِم و التِيجَانِ و رَبطَاتِ العُنُقِ و العَباءاتِ المُطَرزَة بالعَمَالة ، كُلُ مَا تُشَاهِدهُ مِن مَواكِبٍ للأُمَراءِ و المُلوكِ و الرُؤسَاءِ العَرب مَحضَ كِذبة ، كَذَبوا على الشُعوبِ باسمِ القَضِية و الدِمَاء،

كُنَا و لا زِلنا أغبِياء ، نلهثُ وراءَ نِفَاقِهم ، نُصَفِقُ لِنُبَاحِهِم ، نَنحَرُ الذَبائح لِقُدُومِهم ، نَفرُشُ السِجَاد الأحمَر تَحت سُمِهم ، و لو سَألتَ أحَداً مِنهُم كَم مِن شَخصٍ قَتَلتَ أو نَفِيت أو هَجّرتَ أو اعتَقلتَ، لَقَالَ لكَ إنْ كَانَ صَادِقاً : لا أعْلم.

نَعم هُوَ لا يَعلم!..

كُلِ الذِي يَعلمَهُ كَم مِن الأموَالِ حَشَدَ و عَدَ في بُنُوكِ الغَرب، و كَم مِن شَرِكة و عَقَارٍ نَهَبَ و سَرقَ مِن أفوَاهِ الشَعب،

مَا عِندنَا كَبِير بِالأصل .. كَبِيرُنَا حَرَامِي .. و قَضِيتِنَا وَهم.

عَلَقَ مَوقِع العَرَبِية نِيوز ذَاتَ دَهَشةٍ أصَابَت عُرُوبَتِي تَقرِيرَاً مِنَ الخَامِ الحِجَازِي الأمرِيكِي مَفَادَهُ:

أموَالِ السُعُودِية في عُب الأمرِيكَان، و أنبَاء عن تَجمِيد أرصِدةِ المَملَكة بالوِلايَاتِ المُتَحِدة بِفَرمَان " جَاستا " ، المَبَالغ تَتَجَاوز 4 : تِريليُون دولارَاً ، و خَسَائِر كَبِيرة تنتَظِر أبنَاءَ الحِجاز.

هَذا عِنوان المَقَالة أمَا مَفَادَهَا أعظَم و أخطَر ، فَلا تَسَألنِي عَن القَضِية ، سَأقُول لَكَ أين تَجِد القَضِية العَربِية ،

لَيسَ بَعِيداً مِن هُنَا ، في الصُومَالِ مثَلًا بَلدٍ طَفرَان آخر خَبر تَنَاولهُ موقِع الجَزِيرة في 26 - 2 - 2017 م خَبراً يبصِقُ في وجُوهِ الحُكَامِ العَرب مَفَادَهُ:

حَذَرت مُنظَمةِ " أنقِذوا الأطفَالِ " مِن مَجَاعة في الصُومَالِ في ظِلِ استمرَارِ الجَفَافِ هُنَاك ، مُؤكِدة أنَ هُناكَ حَاجة إلى 864 مِليون دُولار لتَقدِيمِ مُسَاعَدَات في هَذَا العَام.

هَل رَأيتَ القَضِية و الفَارِق الكَبِير بِين شَعبٍ مُنتَفِخَ بِالحِسَابَاتِ البَنكِية في الغَرب و بِين شَعبٍ قَد أُطبِقَ جِلدَهُ على عظمِهِ مِنَ الجُوع ، فَلِيسَ غَرِيبًا عَلِيهِم أن يَضَعوا شَعبَاً أشبَعَ الكُونَ بالحُرِية و الكَرامة في مُخَيمَاتِ الذُلِ و القَذَارة ، و لَيسَ غَرِيباً أن يَتبَاكوا في مَجلسِ الأمنِ و المُنظَمَاتِ الإنسَانِية لِيشحَدوا لنَا رَغِيفَ الخُبزِ، صَدِقنِي أيُهَا الزَمَان بِأنَ أنظِمَتنَا شحَادة مِنَ المُستَوى الرَفِيع ، فَمِنَ العَيب على دُولٍ تَدينُ بِدينٍ يَحضُ على مَكَارمِ الأخَلاقِ و إكرَامِ الضَيفِ و إغاثَةِ اللهفَان و تَقدِيمِ يَدِ العونِ للجَمِيعِ بِأنْ يَزُجَوا بِشَعبٍ حُرٍ تَحتَ خِيامِ القَذَارة.

هَل سَمعتَ بِمُخَيمِ الزَعتَري !!!

أكبَرِ مُخيمَاتِ اللجُوءِ عَرَبِياً و الثَانِي عَالَمِياً ،

هَنِيئاً للأُمَة العَرَبِية بِهَذِهِ الإنجَازَات ، فَمَاذَا تَرجوا مِن أُمة حُكَامَهَا لُصوص و سِياسِييها لَمَم و عُلمَائِها مُنَافِقِين!..

أوجَاع تِلوَ أُوجَاع ، فَكم مِن دولة طَرَدتنَا ! ، و كَم مِن بَلدٍ أهانَتنَا ! ، و كَم مِن أُنَاسٍ قَذِرة أذَاقُونَا مَا تَبقَى من أوجَاعِنَا قَهراً. !

و اليَوم و على أرصِفَةِ الغَرب التي تَقُودُنَا الخُطى إلى مُستَقبلٍ مُشَوهِ المَلامِح ، و لأنَ هَذا اليَوم هُو عِيد الأُم ، أُرسِلُ مَع أحزَانِ يُتمِي بَرقِياتِ تَهنِئة:

إلى مِلحِ الجِراح في بَلدِ اللجُوء ،

الأُمَهَات المَاكِثَاتِ تَحتَ أمواَجِ الخِيام ، إلى الأُمَهَات المُتَوجِعَاتِ البَاكِيات في مَواطِنِ المَذَلة ، إلى الأُمَهَات المُهَاجِراتِ عَبرَ جُسُورِ المَوتِ المُبكِي ، إلى مَن حَمَلن في أرحَامهُنَ شُهداء كَرامة و حَملنَ في أحلامَهُنَ قَضِية وَطن ، أنتِ الوَطن و كُلنَا شَعبٌ حَولَ كَعبَتكِ.

هُنَاكَ في صَحَارى اللجُوءِ ،

و حَولَ اهتِزازِ البَردِ و تَحتَ خِيامِ الذُلِ و بَينَ كُثبانِ الرَحِيل ، تُلقِي تِلكَ الأُم اللاجِئة أحلامَهَا على تُرابٍ لِيسَ بِتُرابِهَا و مَخلَدٍ لم تَعتَد عَلى فِراشِهِ المَحشُو بِالحَصى ، و تَتَوسَد هُمومَ أجيالٍ أفقَدتهُم الحَرب طَعمَ الحَياة ، أضحَت أُمهَات الوَطَن حَوامِل بِقَضايانَا ، كالحُرِية و الكَرامة و وَطنٌ حُدودهُ الأمَانِ و الاستقرَارِ ، فَكُلِ أبنَائِهَا ذَهبوا إلى الحَرب ، حَربٌ لا يَعلم القاتِل لِما قَتل و المَقتُول لما قُتِل.

مَن سِيدخُلُ خَيمَتهَا و مَن سِيُقَبِّلُ يَدِيهَا و مَن سَيضمُ صَدَرهَا ! ، كُلُهَا أسئِلة يصعُبُ على القَارئُ الإجَابة عَلِيهَا لأنَ الأبنَاء بينَ مُهَاجِرٍ و مُقَاتِلٍ و قَتِيل.

إذاً صَبَاح الخَير يا فِيينَا..

كَيفَ تَبدِينَ اليَومِ يا مُوسيقى العَواصِم و لَحنَ الكَمنَجة.. !

كُلُ مَا فِيكِ يَدعو إلى الرَقص على مَعزُوفةِ الرَاحِل : يُوهَانْ شتراوس الابنْ .. المَشهُورة بالدَانُوب الأزرَق..

و كُلُ ما على مَسرَحِ الشُروقِ يَدعو إلى الرَاحِل : فرانتِس جريلبارتسر للنُهُوضِ مِن تَابُوتِهِ و التَرجُلِ على مَسرَحِهِ..

لَيسَ ليَالي الأُنسِ تَلِيقُ بِفِيينا فَقط..

كَذَلكِ الصَباح الرَطِب و تَراتِيل العَصَافِير و ضَجِيج المَقَاهِي النَمسَاوية و تَشرذُقِ محطَاتِ المِترو و ابتِسَامَاتِ النِسَاءِ الجَافة مِنْ انتِعاشِ الحَيوية كُلُ ذلِكَ يَلِيقُ بصَباحِ فِيينَا الطَازج بل القَابِل للقضمِ كَتُفَاحَةَ الجَنة التي حَذرَ اللهُ آدم و حَواء مِن أكلِهَا في الفِرْدَوس الأعْلى ، فَصَباحُكِ جَنة يا كُلَ مَعاصِيّ .

5

عَاصِمَة المُوسِيقى،
كُنتُ غَرِيباً في عَواصِمِ العُرُوبة،
مُتَسوِلاً بينَ أرزِ بَيروتِ و شَهَامِةِ عَمَانْ،
و كُنتِ عَاصِمَتِي المُنعَزِلة التي أسترجِعُ ذَاكِرتِي بِها،
أُشَاهِدُ تَفَاصِيل ذَلِكَ النُور بينَ شُقُوقِ الذَاكِرة بِكِ أنْتِ ،
أنتِ التَي كُنتِ تُشَيعُنِي بِسَيلٍ مِنَ الدُمُوع في كُلِ بُرهَة سَفر ، أنتِ مَن كَانَت تُغرَقَنِي بِالقُبَلِ المَحمُومَة في كُل إيَاب ، قَطَعَ العُمرُ بِيَ ثَلاثة و عِشرُون و لم تَنقَطع نَظراتَهَا الشَهِية في طَوافِها بِنُموّي، ونَبَتَ الشَعرُ في وَجهِي و لا زَالتْ تُنبِتُ لأروَاحِنَا حُبَاً، واكتَمَلَت تَفَاصِيل رُجُولتي و لا زِلتُ في قَلبِهَا أحبُو إلى خِدرِهَا، وأُسافِرُ بِمُرَادِي قَاطِعًا مِن الأشواقِ رُؤيَاهَا وأنَا مُحَملٌ بِلفِيفِ مِن الدَعواتِ و البَركَاتِ، أقمتِي تَحتَ التُرابِ يا حَبِيبَتي و نَا لا زِلتُ أُسافِرُ بِأثقَالِ الذَاكِرة ، تِلكَ الذَاكِرة التي لا أذكُرُ مِن مَلفَاتِهَا المحشُوة بِالمَاضِي سِوى رائِحةِ كَفيكِ المُخضَبِة بِدفئِ لَمسَتَكِ، وسجَادةَ صَلاةٍ تَرفَعِي إلى المَولى صَلوَاتُكِ، وسُبحَة مِئوية التَرتِيلِ تَلفُ

عُنُقكِ، وصَندوقٌ مُحكَمٍ بالأمَانِ وَضعتُهُ على رفِ خِزانَتي تَملأُهُ أشيَاءكِ ،

هُنَا فِيينَا يا أُمي.. .. ..

هُنَا أوتَارِ مُوسِيقى تُعَانِقُ الطرُقَاتِ..

و مَزَامِيرِ الأرصِفَة تَعزِفُ مَا لَذَّ و طَاب..

و أشجَارٌ تَحتضِنُ صَبَاحَتُهَا مِن بَعدِ أنْ أغَارَت عَلِيهَا الأُمسِيات ..

و بَردٌ كَمَقَامِ الرَست في مَعزُوفَةِ:

Franz Schubert

يا أُمي بِدَايةِ رَبِيعَ هَذهِ المَدَينَة صَقِيع كَأُوركسترا الفَنَان النَمسَاوي:

Falco، صَاحِب المَعزُوفة العَالمِية : أنعشيني يا أمَاذُيوس.. ..

أنعِشيهُ يا أمَاذُيوس..

يا أُمَاهُ هُنَا الأوطَان رُغمَ بُرُودَةِ رَبِيعهِم و رَبِيعِ صَيفِهم أشهَدُ و أنَا في ارتِجَافِ الشوقِ لكِ بِأنَنَي بَردَان..

دَثِريني يا أُمَاه..

دَثِري يُتمِي بِوشَاحِ أنفَاسُكِ..

لا تُخِيفَني ضَمةَ الصَدرِ حَتى و إنْ كَانْت عِظَامَاً ،

لم أعُد أشعُرُ بِالدِفئ بَعدَ أن اتخَذتِ اللحَدَ مَسكَنَاً و خَلِيلاً..

في أربَعُينَ عَاصِمَة و أنَا أرتَجِفُ يُتمَاً ، فَلَقَد تَخطتهَا قَدمَاي بِلا حُبٍ و لا رَاحِلة ، و لا زِلتُ أحبُو على عُبابِ اللهَفة إليكِ ، دَثِريني يا أُمَاه..

في المَنفى لا أثِيرَ لي سِوى مَاضِيكِ..

و لا مُؤنِسَ لارتِعاشِ الشَوقِ سِوى ضَحكَاتٍ كُانتْ لي مَبعَثَ حَياة نِهَايتُهَا أنتِ..

هَل تَحسَستِ قَشعَرِيرَةِ الرُوحِ بِينَ أضلاعِي ، و رَعشَةَ القَلبِ بِينَ أكنَافِ صَدري ، و اصطِكَاكِ النَبضِ في تَجويفِ ذَاكِرَتِي ، و ارتِعَادِ الأنفَاسِ التي تَبحَثُ عَنكِ ، و خَفقِ الحَبرِ في انصهَارهِ على بَيَاضِ الوَرق ، و اختِلاجِ الكلمَاتِ في عِيدٍ هوَ لكِ ، كُنتِ أنتِ البَطَلة و أنتِ الغَائِبةَ فِيهِ في آنٍ وَاحِد! ..

دَثِريني يا أُمَاه..

في أكفَانِ الوَدَاعِ ، و مِلحِ اللحُودِ ، و مَرَارَةِ القُبورِ ، في ظُلمَةَ الأموَاتِ ، و اهتزَازِ الفِراق ، هَل تُصغِي إلى ذَلِكَ الطِفلِ الرَضِيع في حُضنِ حَنَانُكِ ذَلِكَ الطِفلُ الذي لم و لنْ يُفطَم مِن حُبكِ ، أصغِي إلى زَلازِلَ الحِدَادَ في طَياتِ صَدرِي ، فَهل وَصَلَ دَمَارِ الحُزنِ إلى شَفِيرِ رمسُكِ!..

هُنَا فِيينَا يا أُمي.. .. ..

هُنَا الكُلُ يَعزِف على لِيلاهْ..

وَطَنٌ مُطَرزٌ بِالمُوسِيقى تَحجُ إلِيهِ أسمَاءٌ يحلمُ بِهَا عَمالِقةِ الفَن ، أسمَاءٌ تُصعقُ لِسَماعِ جُنُونِهَا ، أسمَاءٌ مُوسِيقِية تَنحَنِي لَهَا كُلِ المَقَامَات ك : جُوزِيف هَايدن.

قَائِدَ أُوركِستَرا الأمِيرِ استراهازي و مُؤلِفِ نَشِيد حِفظِ الوَطنِ القَصِير الذي أضحَى بَعدَ ذَلِكَ النَشِيد الوَطنِي الألمَانِي.

و المُوسِيقار العَملاق : فرَانز بِيتَر شُوبِرتْ.

الذِي ألفَ أكَثرَ مِن 1000 مَقطُوعة مُوسِيقِية ، و قَامَ بِكِتَابَةِ أكثَرِ مِن سِت مِائةِ عَمل موسِيقِي.

و المُوسِيقار العَظِيم : جُوزِيف أنطوَن بُروكِنِر ،

صَاحِبِ أشهَرِ سَبعَةِ سِيمفونِيات دِينِية ، و أعَظم عَازِف في الكَنائِس و الأدِيرة الدِينِية.

و المُوسِيقار المُحَنك : غُوستَاف مَالِر ،

مُؤلِف مُوسِيقِي و أعظَمِ قائِد أُوركسترَالي.

هُنَا فِيينَا يا أُمي..

قِبلَةَ الصَوتِ و الفَاصِلِ الزَمَنِي للصَمت ، و رُكنٌ للحَنِ و لِحَنَانِ الأنَغامِ ، و مِحرابٌ للإيقَاعَاتِ و الأوزَان ، كُلُ مَا فِيهَا مِن إيقَاعٍ مَائِي يَدعُو الصَمِت في رِحَابِ اللحَنِ إلى الرَقص ، و هَذِهِ

العَاصِمة التي تَعزِفُ على مَنَصَةِ العَواصِم لا تَرقُصُ إلا على المَاء ، لنْ تُشفى مِن الرَقَصِ و التَهَاذِي على رُخَامِ الحُزنِ حتَى و إنْ تَغَابِيتَ بِالسَعَادة ، و كُلُ ما في هَذِهِ المَدِينة بِينَ عَازِفٍ و راقِصٍ و مُستَمِعٍ.

و لأنَ أربَابَ الجَهلِ حَرموا السَمَاعَ إلى مَا تَمِيلُ إليهِ القُلوب ، استبدَلوا الكمنجَاتِ بالمدفَعيات ، و الأبوَاقِ بالسيوف ، أصبَحتْ موَشَحَاتُهم تَهدِيداً و قَصَائِدَهُم وَعِيداً ، شَتَتوا العِباد بألحَانِ فَتَاوَاهُم ، و قَسَموا البِلاد بِمَوَاوِيلِ إرهَابِهِم.

و الكُلُ يَعزِفُ على مُوسِيقاه..

عُروبةَ الغِنَاء..

مُوسِيقَانا لم تَعُد تَصلُح للصَمتِ ،

و صَمتُنَا أضحَى كَلاسِيكِياً في الطُغِيان و القَتلِ و التَشرِيد ،

أجمَل مُوسِيقى عَزفنَاهَا هيَ موسِيقى الجُوعِ و الفَقرِ و الرَجعِية ، و للأسَفِ الشَدِيد لا يُوجَد تَوَازن بِالنَغَم بين مُوسِيقى الجُوعِ و العَوَز و ألحَانِ البَطَرِ و الشَبع..

فالكُلُ يَعزِفُ على حَسَبِ عَمَالتِهِ ، و مَع كُلِ هَذِهِ المَقَامَاتِ و الجَلجَلة الغَنِية بالتَخلُفِ و العَودةِ إلى العَزفِ على قَرقَعَةِ السِيوفِ

و رُعبِ المِدفَعِيات ، لا زَالَ نُبَاحُهُم يُرَدِدُ في كُلِ ظُلمَةِ وَطنْ شِعَاراً نَقَشُوهُ على صُخُورِ الذَاكِرة:

أُمَة عَرَبِية وَاحِدة ذَاتَ رِسَالة خَالِدة.. ..

كَذَبوا عَلِينَا يا أُمَاه .. عِندَمَا قَالوا لَنَا بِأَنَنَا أُمِة وَاحِدة..

و إذا أردَنَا أنْ نَختَارَ سمفُونِية تَعزِفُ لَحنَ الجُوعِ في مَواطِنِ العُرُوبة فسَأختَارُ لَكُم وَطَنِي سُورِيا ، حَيثُ كُشِفَ على حَسب إيقَاعَاتِ الحَربِ بينِ الشَعبِ و طَاغِيةِ الشَامِ بَشَارِ الأسَد ، خطُورةَ أزمَةِ الجُوعِ في تَقرِيرٍ أعدَتهُ مُنظَمَة أطبَاء بِلا حُدُود:

أنَ أكثر مِن مَليون و نِصف مَليون سُوري يُواجِهُون خَطَر الموتِ جُوعَاً ، بِينَمَا تُقَدِر الأُمَمِ المُتَحِدِة عَدَدِ السُورِيين الذِينَ يَعِيشُونَ تَحتَ الحِصَار بِنَحوِ 486700 شَخص .

هَذِهِ مُوسِيقى الجُوع التِي تَجتَاحُ جُزء مِنَ الوَطنْ العَربِي..

أمَا مُوسِيقى البَطَر و الشَبع و الكَذب تَعَالَ مَعِي إلى بِيتِ اللهِ الحَرامِ ، تَقُول سِمفُونيةِ مَجَلةِ الحَياة الجَدِيدِة الإلكُتُرونِية بِعنوَانٍ يُشبِعُ الجِياع و يُغِيثُ اللهفَان:

80 مِليار رِيال سُعُودي تِكلُفَةِ التَوسِعَة الكُبرى للحَرمِ المَكِي على مَسَاحَة 400 ألف مِتر مُرَبع..

و قَد عَزَفَت جَرِيدةِ الشَرقِ الأوسَط في عَدَدِهَا 11577 خَبراً يُشبِعُ جِياعَ الكونِ بِأكمَلِهِ مَفَادَهُ:

اكِتمَالِ مَشرُوعِ مِظَلاتِ الحَرمِ النَبَوي العِملاقَة حِيثُ بَيَنَت بِأنَ تَكَلفَةِ هَذَا المَشرُوع بَلغَت 4.7 : مِلَيَار رِيال سُعُودي..

السُؤالِ هُنَا ليسَ عَن مُوسِيقى و جُنُونِ المَشَارِيع التي تَخدمُ المُسلمِين .. و لكن السُؤال سَيَكُون:

هَل الله بِحَاجة إلى هَذِهِ الأموَالِ الجُنُونِية و أبنَاءِ العرُوبَة و الإسلامِ غَارِقُونَ بالجُوع !..

6

لا زِلتُ أمشِي إلى مَأوى العَجَزَة .. أو مَنَازِلِ الحَيَاة..
أنَا الذِي لم أتَعَلمَ المَشِي يَومَاً على أرضِ العُروبة..
كَانُوا يُعلِمُونَنَا الزَحف خَوفَاً .. و لا زَالوا يُروضُونَا على الحَبوي خُنُوعَاً ، أوطَانٌ غَربِية كُلَ شَيئٍ فِيهَا يُبَاعُ و يُشرى بِثَمنٍ بَخِسٍ إلا الإنسَانَ فِيهَا هُو بَاهِظَ الثَمَن ، و أوطَانٌ عَرَبِية كُلُ مَا فِيهَا مِن خَيراتٍ و بَركَاتٍ و ثَرواتٍ بَاطِنِية كَانتْ أو خَارِجِية و حَتى البَشْر فِيهَا يُبَاعُونَ بِصَفَقَةٍ تَحتَ طَاوِلة المَكِيدة ، على مَرأى الفَضَائِياتِ و وَسطَ حُشُودٍ مِنَ المُصَفِقِينَ و المُطَبِلِينَ و على عِينَك يا تَاجِر..
أنَا الذي لم أقِفْ على قَدَمِي يَومَا على تُرابِ الوَطنْ..
أتُرانِي أقِفُ بِقَلمِي و بِكُلي لأكتُبَ مَشَاهِدَ المَاضِي ، الذي لم نَكُنْ نَعرفَ مِنهُ سِوى إطَاراتٍ تَتَوسطُهَا صُورة لآلهَةٍ تَغتَصِبُ كُلَ جِدَارٍ ، و تَختَلسُ كُلَ زُقَاقٍ ، و تَنتَشِلُ كُل مُؤسَسَةٍ حُكُومِية ، و تجثُمُ في كُلِ شَارِعٍ..
هُوَ الوَطن الذِي كُنَا نَزحَفُ على تُرَابِهِ..
نَعم كُنَا نَزحف بِأثقَالِ عُرُوبَتُنَا ، و نَجرُ سَلاسِلَ قَضَايَانَا ، و في مَعَاصِمِ الأروَاحِ أغلالُ الوَطَنِية التَي لا نَحفَظُ مِنهَا سِوى كَلمَة:

لا تَتَكَلم الجُدران لهَا آذَان..

كَيفَ نَمشِي إلى المُستَقبَل على وَطنٍ بقَبضَةِ رُوسِيا و إيرَان ، على أيَّ تُرابٍ سَنخطُو و كُلُ مَا فِيهِ مِن رُذَاذ قَد ابتَاع بِشِيكَاتٍ رُوسِية و إيرَانِية بِكُلِ عَينٍ وَقِحة..

آلِهة بِلا حَياء..

لم يتَبق مِنَ الوَطنِ غَيرَ اسمَهُ..

عَلمُونَا أنْ لا نَمشِي سِوى في مَسِيراتِهم ، لا تَهتُفُ إلا بِاسمِهِم ، لا نَستَمِعُ إلا لنُبَاحِهم ، فالمَشِي في غَيرِ هَذهِ الطُرق حَرامٌ و إجرامٌ ، لم نَعُد نُمِيّز وجهَتَنَا و إلى أينَ نَمضِي مِن آثَارِ اللطَمَاتِ و الكَدَماتِ المُقَنَنَة التي تَجتَاح الشَعب ،

مُخَدَرُونَ فِكرِياً و عَقَدِياً و أخلاقِيَاً .. يا أُمَاه..

هُنَا جَمهُورِية النَمسَا يا أُمَاه..

هُنَا الوَطنُ للشَعب ، و الشَعبُ في خِدمَةِ الوَطن..

مِن أغلى البُلدَانِ في العَالم ، حَيثُ يَبلغُ الإنتَاجِ المَحلي الإجمَالي لكُلِ فَرد $ 46330 ، بَلدٌ خَالِية مِنَ النِفطِ و الغَاز تُعد في المَرتَبة 19في العَالم مِن حَيثِ مُؤشِر التنمِية البَشَرِية و المُستَوى العَالي في المَعِيشة ، على هَذَا الوَطن الغَربِي تَعلمتُ المَشِي على الرأي و على الحُرِية و على الدِيمُقرَاطِية و على الوَرق و على الحُرُوف ،

كَتبتُ مَا كُنتُ أخشَاهُ و نَشرتُ مَا كُنتُ أهَابَهُ ، وَطنٌ غَربي عَلمَنَا كَيفَ نَنتصِرُ على الخُوفِ في أحشَاءِ صُدورَنَا ، عَلمَنَا كَيفَ نَسِير إلى الفَوزِ بِالحَياة لأنَنَا كُنَا في تَعدَاد المَوتى ،

أي وَطنٍ هَذا الذي كُنَا نَعيشُهُ ، كَالذَبائح المسلوخَة نُعَلقُ مِن أدبَارِنَا ليأكلونَا لَحمَاً و يُلقونَ بِبؤسِنَا عَظمَاً.

وَصَلتُ إلى .. مَنَازِلِ الحَيَاة .. مَأوى العَجَزة..

أقِفُ أمَامَ أعتَابِهِ كَأنَنَي عَائِدٌ مِنْ سَفر..

أذكُرُ عِندمَا كَانتْ تَنتَظِرُ عَودَتِي على أعتَابِ بِيتِنَا ، تَتَرَقَبُ مَجيئي على شِقِ مَوارِبِهِ ، جَالِسة على كُرسِي الشَوقِ بِعَباءتِهَا الحَالِكَة بِالظَلام ، و قَد وَضَعت كَفَهَا على خَدِهَا مِن بَعدِ أن أنَاخَت بِأواني الطَعَامِ و أصنَافِهِ المُلوَنَة على المَائِدة..

أشعُرُ بِعطِرِ حَنَانِهَا خَلفَ الأعتَاب .. بِطَلَةِ نُورِهَا المُتَدفِقِ مِن شِقهِ الجُنُونِي ، أفتَحُ شَهِيةَ البَابِ:

ـ إجِيت يُمَة!

لأرتَمِي على ذَلِكَ الدِفئ بِجُنُونِ طِفلٍ لم يَرَ أُمهُ منذُ عَقدٍ من الشّوق،

ضُمِيني يا حَبِيبَتي..

ضُمِي رَعشَةَ الحَنِينِ إلى لُقيَاكِ..

ضُمِي ارتجَافِ المَسَافَاتِ بينَ لُغاتِ الأُمُومَةِ..

على أعتَابِ مَأوَى المُسنِين .. كَم أمٍ تَمكُثُ على أرِيكَةِ حُزنِهَا .. !

و كَم أُمٍ تَعدُ الثَوانِي لمَجيءِ ذَلِكَ الطِفلِ الذي كَانَ عُقدَةَ سَعَادَتِهَا ! ، لنْ تَنسَى عيونَهَا كَم مِن دَمعةٍ ذَرَفَت ، و كَم مِن لَيلةٍ طَوت على فِراقِهِ ! ، و كَم مِن أيَامٍ تَآكَلت في طُقُوسِ قَلبِهَا. !

دَخلتُ تِلكَ الدَار .. كُلَ شِيءٍ مُرتب كَالحُزنِ ، و أنِيقٍ كَالوَجعِ ، و وَقور كالألَمِ ، اجتَاحَتْ شَجَا القَلبُ أسِئلة بِلا زَادٍ و لا أجوِبة تَركتُهَا مُعَلقة كخُدوشِ الدُمُوعِ و كفُروحِ المُخَاضِ و ككَدَمَاتِ الزَمَان..

كَم مِن عَاقٍ دَاسَ أعتَابِ هَذِهِ الدَار.. !

كَم مِن أُمٍ كُرِمَت بِرَمِيهَا في سِجنِ مَنَازِلِ الحَياة.. !

كَم مِن أجسَادٍ نَحِيلة و جُلودٍ مُتَرهِلة و عُيونٌ شَاحِبة و أسمَاءٌ كلاسِيكِية وَطِئت هَذا المَمرِ.. !

كَم مِن تَوَابِيتٍ مُحَملةِ بالحَنَانِ مُمَدَدةِ بالحُبِ مُلقَاةِ في سَرابِ المَوتِ قَهراً خَرجَتْ من هَذِهِ الأعتَاب.. !

أيُعقَل أن يَجدَ هَؤلاءِ النُزَلاءِ إكرَاماً و ذُلاً كَمَا قَرَأتُ آنِفَاً في أحدِ الصُحُفِ الوَرَقِية .. !

تَقُولُ صَحِيفةِ الوَسِيط في عَدَدِهَا 1650 : في 14 مَارِس عام 2007م ، بِعنوانٍ مُرعِب مَفَادَهُ :

دُورِ المُسنِين بفَرنسَا .. إذلالٌ و تَجوِيع..

العنَوانْ جَمِيل ، و الأجمَل هُوَ ذَاكَ العُقُوق الذِي لا يستُوعِبَهُ عَقلٍ و لا قَلبٍ و لا مَنطِقٍ ، يَقُول كَاتِب التَقرِير الأُستَاذ رَضوان حَسن: شَتَائِم و لَطَمَات و لَكَمَات و تَجوِيع .. جَمِيع أنوَاعِ التَعذِيبِ النَفسِي و البَدَنِي تُمَارسُ ضِدِ عَشَراتِ الآلافِ مِنَ المُسنِينِ بِفَرنسَا ، فَبَدَلاً من تَوفِيرِ الرِعَايَةِ لأُولئِكَ الذِين تَخلتْ عنهُم أُسَرهُم ، تَحولَ عَددٍ لَيسَ بالقَلِيل من دُورِ رِعَايةِ المُسنِينَ في فَرنسَا إلى مُعتَقلاتٍ لإهَانَةِ العَجَائِز .

الحَقِيقَة بأنَ هَذَا الخَبر المُشبعِ بالعُقوق هُوَ عَارٌ على فَرنسَا مَدِينَةَ الحُبِ و الرُومنسِية ، و الكِن الخَبَر المُفجع الذي قَرأتهُ هُوَ أشدُ عُقُوقَاً ، بِأنَ شُعُوباً أغرقتنَا بِشِعَارَاتِ البِر و النُصُوصِ السَمَاوِية التي تَحضُ على برِّ الوَالِدِين ، إذا وَجدتَ فِيهَا دَاراً للمُسنِين فَإنَهَا أُمَة كَاذِبة و شَعبٌ مُنَافقٍ و أرضٌ مَاتَ فِيهَا العَدل ، يَقول عنوانِ التَقرِير الذِي أعدَهُ الصَحَفِي أحمَد مُرجَان في صَحِيفةِ صوتِ الأُمَة في مَصر:

دَارِ الهِدَاية للمُسنِين .. ظَاهِرُهَا رَحمَة .. بَاطِنُهَا عَذَاب.

و كَتبَ أيضاً:

تَعذِيب .. قِلةِ طَعَام .. إهمَال ، جَرائِم و شَائعَات عِدة لاحَقَت دَارِ الهِدَايا للمُسنِين في مُحَافَظَةِ الإسكندِرِية ، بَعدَ انتِشَارِ شَائِعَات حَول تَعذِيب الدَار للمُسناتِ على مَواقِعِ الإنترنِت ، مَا جَعل الكَثِير مِن المُواطِنِين يَتَعاطَفُونَ مَع نَزِيلاتِ الدَارِ و يُحَاوِلونَ الاستِغَاثَة بالمَسؤولِين لإنقَاذِ مَن تَبقوا في جَحِيمِهِ .

هَذا وَطنٌ فيهِ الأزهَرِ الشَرِيف ، الذِي مَلأ الدُنيا زُعَاقاً و صُرَاخَاً بِبِر الوَالدِين ، وَطَنٌ فِيهِ عُلمَاءِ الدِينِ أكثَرِ مِن العَوَام ، و فِيهِ دُورٍ للعَجَزة .. !!! ، هَذَا أمرٌ مُخِيف جِداً ، إذَاً لا عَتَبَ على الغَربِ البَتة ، وَطَنٌ لا يَحتَرمُ الأُمَهَات لا يستَحق أن نُطلق عَليهِ وَطنْ ، لأنَ الذِي ألقَى بِأُمهِ في دُورِ المُسنِين لا يُؤتَمن على وَطن .

7

لا زِلتُ أبحَثُ عَنَهَا في ثُغُورِ القَلبِ..
أنَقِبُ عَن بَصمَةِ عِطرِهَا في فُتُوقِ المَاضِي..
أتحَرَى بِبُوصلةِ الشَوقِ طَيفَ بَشَاشَتَهَا مِن ثُقُوبِ الحَنِين..
كَفَهَا .. آآآهٍ مِن نُعُومَتِهِ..
مُدِّي الكَفَ إشفَاقَاً يا كُلَ الأُمَهَات..
دَعِينِي أُمَرِغَ أحرُفَ الوَجَعِ في خَارِطَةِ يَدِكِ ، مَرِري بِشَذَا أصَابِعِكِ جِراحَ الشُوقِ المُتَسَرِبةِ في زَوابِعَ قَلبِي ، أعِدِّي لِيَ صَدَرَكِ لأستَرِيح ، فَإنَنِي مُرهَقٌ حَدَّ التَعب..
أُمَاه..
أيَنَ أنتِ .. ! .. أنَا هُنَا يا أُمَاهِ ،
جيئَتُكِ مِن كُلِ زَيتِ النُزوحِ ، مِنْ بُكَاءِ المَنَافِي ، مِن وَحلِ الغُرُوبِ و قَبَل الارتِحَالِ إلى مَواطِنِ العَوِيل ،
جيئَتُكِ مِنْ غَصَةَ الدَبِيبِ في حَنَاجِرِ الرَاحِلِين ، مِن معَاقِلِ الحُزنِ المُخَمَر في جِرارِ السَاكِرين ،
أُمَاه..

رَاحَ يُتمِي يَتحَرى وجُودُكِ في كُلِ هَبوبٍ قَد تَكُونِينَ فِيه ، حَتى سَاقت بِي الأشوَاقِ إلى دَارِ المُسنِين ،

أينَ أنتِ .. ! .. هَل مِنْ أحدٍ هُنَا.. !!

حَتى تَجلتْ لِي مِن أروقَةَ الدَارِ شَابة باذِخَةِ الجَمال و مُنِيفة بالحُزنِ ، رَاحَت تَطفُلِ الأفكَارِ تَتَخبطُ في سِردَاب القَلب ، أيُعَقل أنْ تلتَحِمَ نِيرانِ الجَمَالِ مَع أمطَارِ الجَزعِ تَحتَ سَمَاءٍ وَاحِدة.. !

أيُهَا الجَمَال لا تنبُشَ لُحُودَ الحُزنِ مِن مَقَابِرِ المَاضِي..

كَلِمَةَ الحُزن لم نعُد نطلِقُهَا إلا على الوَطن..

أيُهَا الوَطن صَدِقنِي .. بإنَ الحُزن يَلِيقُ بِكَ..

لا تَقُلْ لِي كَيفَ و مَتى..

تُرَابُكَ وَحدَهُ يَعلم بَعدَ اللهِ كَم مِن جُثَث التَهمتَ ، مَقَابِرُكَ الجَمَاعِية لم تَعُد تُحصى ، مُستَقبلٌ ضَائِع ، و دِمَاء لُصُوصكَ جَعلتْ مِن أحلامِكَ طِيناً ،

كَم أنتَ حَزينٌ و كَئيب أيُهَا الوَطن ،

جَعلوكَ حَلَبة لِتَتَصَارع عَلِيهَا ثعَالبِ الغَدرِ و المَكِيدة ، و لم تنتَابُهُم شَفَقة ، خَمسةَ عُقُودٍ مِنَ الحُزنِ و النَهبِ و القَتلِ في وَطنِي ، و لم تُشفى بَنَادِقَهُم و سَكَاكِينَهُم مِن ذَبحِنَا كالنَعَاجِ و سَلخِنَا على مَرأى الفَضائِياتِ بِلا ضَمِيرٍ عَرَبِي و لا حِسنٍ إنسَانِي ، أيَةُ فَرحَة تِلكَ

التِي تُرِيد أنْ تَراهَا على مَلامِحِ الوَطن ، بِالأصلِ لم يَتَبق للوَطنِ مَلامِحِ ، تُرابَهُ و مِياهَهُ و نِفطَهُ و غَازَهُ و حَتى الهَواءِ الطَلقِ سَرَقُوهُ و ابتَاعُوهُ لإيرَانِ و رُوسِيا بِالعُملةِ الصَعبَة ، و اقتَادُوا الشَعبِ للاستعبَادِ و التَسلِية ، أغرَقوا قُلوبنَا بالوعُودِ ، قَالوا لنَا سَنَستَرد فِلَسطِين ، و نُعِيد الجَولانِ ، و نَتَحِد مع لُبنَان ، وَعدُونَا بِبَيتٍ لكُلِ مُشَرد ، و لُقمة لِكُلِ جَائِع ، و لِبَاسٍ لِكُلِ عَارٍ ، صَدِقنِي بِأننَا عُراة و جَائِعُونَ و مُشَرَدُون بِكُلِ مَا يَعنِيهِ الحُزنِ مِن فَجَائِع ، كَذَبوا عَلِينَا و قَالوا .. و يا ليتَهُم لم يَقُولوا .. كُنَا نَرى الوَطن بِدُعَاءِ العَجائِز و بِضَورِ البُؤسَاءِ و بِشَقاءِ الفُقَراءِ ، لمْ نَعرِفِ مِنَ الوَطن سِوى اللهَثِ خَلف رَغِيفَ الخُبزِ ، جَوَعُونَا بِالضَرائِبِ و المَراسِيمِ الدِكتَاتُورِية ، ضَيَقوا الحَياة على أحلامِنَا ، احتَلوا المَنَاصِب و عاثوا في البِلادِ قَتلاً و تنكِيلاً ، أُدبَاؤنَا في المنَافي ، و سِياسيونَا في المَهجَر ، و عُلمَاؤنَا في المُنفَرِدَاتِ و أصحَاب الرأي غَارِقُونَ في السِجُون ، خَمسُونَ عَامَاً و نَحنُ نَحلُم بِالوَطن و نَحنُ في قَعرِ دَارِ الوَطن ، أضحِينَا غُرَبَاء على ذَلِكَ التُراب المُخضَب بالحُزن ، وَطنُنَا مَعقُودٍ بِالمُجرم حَافظَ الأسَد ، لَقد عَلّمَ النَازِية كيفَ أنْ تَكوَنَ جَزَاراً ، في دَمهِ شَيءٍ مِن نَجَاسَةِ الصَهَاينَة شَيءٍ مِن قَذَارةِ الدَواعِش مَزِيجَاً مِن رَدَنِ هِتلَر لَمَسَاتٍ مِنْ رَجَسِ

شَارُونْ ، و كُل مَا زِدتَ بِالوَصف كَانَ هَذَا الطَاغِية أشَدُ طُغِياناً و شُرُوراً ، خَمسَة مَجَازِر فَقَط للجُلوسِ على سِدةِ الحُكمِ أربَعِينَ سَنة:

المَشهَد الأوَل

في حُزِيرانِ 1976 م ، اجتَاحتْ عِصَابَاتِ حَافِظ الأسَدِ و المِيليشيَاتِ المَارُونِية بِقِيادةِ بِيير الجَمِيل حِصَاراً لمُخَيم تَل زَعتَر الذِي يسكُنُهُ اللاجِئينَ الفِلسطِينيين شَرقِ شَمَالِ العَاصِمَة البُنَانِية بَيروت في الحَربِ الأهلِية التي شَهِدَتَهَا لُبنَان حَيثُ كَانَ يَعِيش فِيهِ ما يُقَارِب 35 ألفْ نَسَمة ، لتَهطُلَ عَليهِ أكثَرَ مِنْ 55 ألفِ قَذِيفة ، على شَفِيرِ الذَاكِرة التي حَصَدت آنَ ذَاك ثَلاثَةِ آلَافِ رُوحٍ فِلسطينِية مُعظَمُهُم قُتِلوا ذَبحَاً بِالسَكَاكِين بَعدَ دُخُولِ القُواتِ المُشتَركة إلى مُخَيمِ الموت ، هُنَا أقُولُ سَقَطَ القِنَاع ، و هَناكَ يَقولُ مَحمُود درَويشْ:

سَقطَ القِنَاعُ عَنِ القِنَاع..

عَنِ القِنَاعِ سَقطَ القِنَاع ..

قَد أخسرِ الدُنِيا..

نَعم لكِنِي لا أقُولُ لا..

لا هِيَ آخِرِ الطَلقَاتِ..

لا هِيَ مَا تَبقَى مِنْ هَواءِ الأرض..

لا تَبقَى مِن حُطَامِ الرُوحِ..
لا حَاصِر حِصَارِكَ لا مَفرٌ..
اضربْ عَدوكَ لا مَفر..
سَقَطَت ذِرَاعُكَ فالتَقطَهَا..
و سَقطتُ قُربَكَ فالتَقطنِي..
و اضُرب عَدوكَ بي..
فَأنتَ الآنَ حُرٌ و حرٌ و حرٌ..

لَقد سَقَطُوا كالزُهُورِ أحرَاراً في مُخيمَاتِ العُهرِ العَرَبِي ، أرَادَ اللهُ لهُم مَوتَ الشُرَفاءِ و أرَادَ الله للمُجرِمين تَارِيخَاً لا زَال يَتَقَاطَرُ دَماً المَشهَد الثَانِي:
في آذَارِ مِن عَامِ 1980 م ، اجتَاحَت عِصَابَاتِ حَافِظَ الأسَد مَدِينَةِ إدلِب ، حَيثُ نَفَذَت مُسلسَلٍ مِنَ المَجَازِر تَجعل الوِلَدانَ شِيباً و مِن أبرَزِهَا جِسرِ الشُغُور ، حُوصِرتْ المَدِينة الواقِعة شَمَالِ سُورِيا ، و قُصِفَت بِالمَدفَعِية و قَذَائِفِ الهَاون و بِدُخُولِ العِصَاباتِ إلى المَدِينة قُتِل نَحو 100 طِفلٍ و امرأة و رَجُل و مُثِلَ بِجُثَثِهِم و أُحرِقَ أكثَرَ مِن 30 مَنزِلاً و أُعتُقِلَ العَشَراتِ مِن أبنَائِهَا ،
عَصَروا مَدِينَةِ الزَيتِ و الزَيتُون لِيخرِجُوا مِنَها دَمَاً حَزِينَاً.

المَشَهدِ الثَالث:

في 27 حُزِيرَان عَامِ 1980 ، نَفَذَت عِصَابَاتِ حَافِظِ الأسَدِ إنزَالاً مِيليشياوياً على سِجنِ تَدمُر الصَحراوي ، عَقِبَ يومٍ وَاحِدٍ مِن مُحَاولةِ اغتِيالٍ فَاشِلة للمُجرمِ حَافِظَ الأسَد ، حَيث ارتَكَبَت إعدَامَاتِ سِياسِية بِحَقِ المُعتَقَلِينَ السِياسِيين رَاحَ ضَحِيتهَا 1200 شَهِيداً ، خَوارٌ على الضِعَافِ كَالكِلابِ الجَرباءِ و فَأرٌ في الجُولان ، تَهَانِينَا أيُهَا المُجرم.

المَشهَد الرَابِع:

بِحُجةِ وجُودِ الإرهَابِ في 11 آبْ عَامِ 1980 م ، اجتَاحتْ عِصَبَاتِ الأسَدِ مَدِينَة حَلب في أولِ يَومٍ لِعِيدِ الأضحى ، حَيثُ حُصِرَ حِي المَشَارِقة و الكَلاسَة و سُوق الأحَد و بُستَانِ القَصر و انتَهَكوا حُرمَةَ المَدَنِيين لِيرتَكِبوا مَجزَرة لا زَالَ التَارِيخ يَفضَحُ آثَارَهَا و جَمعَوا في ذَلِكَ العِيد ما يُقَاربُ 100 رَجُلٍ بِلا ذَنبٍ لِيكُونوا أضحِيةَ الأضحى و ليدفَنُوا في مَقبَرة جَماعِية ضَخمة ، هُنا سُورِيا هُنا الحُزن يا صَدِيقي..

المَشهَدِ الخَامِس :

في 2 شَباط مِن عَامِ 1982 ، أبَادَت مُرتَزِقةَ حَافِظ الأسَد مَدينَة حَماة ليُسَطر التَاريخ أكبَرَ عَملٍ إجرامِي ، و ليحصُدَ 60 ألفَ رُوحٍ مُعظَمُهُم قُتِلوا في إعدَامَاتِ ميدَانِية و ذَبحاً بالسَكَاكِين..

و تَقُول لِي لمَا الحُزن!!

8

مَدّت كَفَ حُزَنَهَا .. فَمَدَ القَلبُ أشجَانَهُ..

و لَكَأنَهَا تَعرِفُنِي ، و لَكأنَنَي التَقيتُهَا ، كَشَفَت عَن خِمَارِ حُزنِهَا بِسِفُورِ ابتِسَامَة خَالِية مِنَ التَصنُع ، في وَجهِهَا تَراتِيلُ شَيخُوخَة ، و حَذَاثَةِ تَعب ، و كُحلٍ مُنتَفِخٌ في دَربِ الهُجُودِ ، شَابَة ثَلاثِينِية الإرهَاق ، تَسَربَ مِن تَحتِ رِمَالِ عُمرِهَا الأسَى المُرتَب ، رُبَمَا تَعمَلُ في الدَارِ..

في شُقُوقِ جَمَالِهَا يتَسلى نُورٍ بَاهِت للإعيَاء ، لم أعَلم مَا هَذا الكَمد في إمعَانِهَا بِتَفَاصِيلِ الأشْياء ، وَقفتُ أحسُدَ قُوَةِ الذُبُولِ في مَضمَارِ ارتَبَاكِهَا ، صَافَحتنِي بِشدة الذُهُول .. قَلتُ:

Guten Morgen .-

زَادَ السُكرُ في ابتِسَامَتِهَا ، حَتى خُيّل إليَّ بأنَ هذِهَ الدَار خَالية مِن مُقَومَاتِ السَعَادة ، قَالتْ:

Guten Morgen .

جَاءَ صوتُهَا مِن كُلِ مَنافِذَ نَهرِ الدَانُوبِ قَبَل الخَريف ، مِن لحِنِ الرَاحِلِينَ على دُرُوبِ اللَيلِ ، مِنَ آخِرِ مَواسِمِ جَفَافِ الطِينِ الثَلجِي

، تَسَربَ حِمضُ الحَيَاءِ في بَرِيقِ عَينِيهَا ، لتَكسِرَ حِدةَ الوقُوفِ على المَمَرِ قَائِلةً:

ـ أنَا Nina المَسؤولة عنْ هَذهِ الدَار .. هَل أستَطِيع أنْ أقَدِمَ أيَةَ خِدمَة لكَ.. !!

كِدتُ أقُولُ لَهَا .. نَعم أنَا أبحَثُ عَن نَجمَةٍ هَربَتْ على مُذنَبِ الأكفَانِ إلى كُوكِبِ التُرابِ ، عَن آثَارِ صَوتِ خَطَوَاتِها في مَعبَرِ الحُلم ، عَن سُبحَة الرَبِ و رَنِينِ النَوى فِي خَيطِهِ المَوثُوقِ بالتَسبِيحِ ،

كِدتُ أقُولُ لَهَا .. هَل شَاهدتِ هَمسَ العَجِينِ بَينَ أصَابِعِهَا ! ، هَل رَأيتِ حِسَ ضَمةَ العَطرِ في رَشحِ صَدرِهَا ! ، هل لَمحتِ غُروبَ ثَوبِهَا بين تَجَاعِيدِ الزَمَانِ ! ،

كِدتُ أُرِيدُ أنْ أضُمَ حُزَنهَا بينَ أذرُعِ مَا عَاشَ مِن فَرَحٍ ، فَقلتُ لَهَا:

ـ أنا زُهَير أبُو سَعد .. أنَا هَنَا زَائِر..

يا ثَلاثِينِيةِ الجَمَالِ يكفِيكِ تَبسُماً ، يَكفِيكِ تَصنُعاً ، كُل مَصَارِف الفَرحِ لا تَستَطِيع تَجفِيفَ دِماءِ الحُزنِ في قَعرِ جوفِي ، شَعَرت بِأنَ أُمِي هُنَا أو رُبَمَا بَقَايا ذكرَيات..

مَا كُنتُ أنَا مَن يُلقي بِهَا مِن على شَاهِقةِ العُقُوقِ إلى حَضِيضِ دُورِ العَجَزة ، و لمَ تكنْ أُمِي امرَأة عَجُوز ليُتعِبَنِي هَرَمهَا ، و لو أنَني

كُلَما رَأيتُهَا تزدَادُ تَقدُماً بالعُمر و أيضًا تَزدَادُ جَمَالاً و نُوراً ، كُنتُ دَائِماً جَائِعاً لتَقبِيلِ يَدَهَا عَطِشاً لِرؤيَاهَا مُنصَاعاً لَسَمَاع أوَامِرِهَا صَدِيقَهَا الدَائِم في كُلِ ذَهابٍ و غِيابٍ ، و بَعدَ كُلَ هَذا الدَوارِ في مُنعَطفِ الخَيال قَالتْ:

ـ هَل لَكَ أحد هَنَا .. أبَاكَ أو أُمُك! ..

كِدتُ أقُولُ لَهَا .. نَعم .. لِي الذَاكِرة و أحلام الأُمُومَة ، و مَاضيَّ المُعفَرِ بالأمَانِ ،

كِدتُ أقُولُ لَهَا .. هَل عِندَكُم ذَاكِرَتِي و جُنون الطُفُولةِ المُعلقِ بأطرافِ شَفَقتهَا ! ، هَل في حَيكُم بَقَايا لِأسلَافٍ خِدرِهَا ! ، تَطَايُر شَعرٍ مِن رَأسِهَا ! ، نَفيشِ رِيشٍ مِن وِسَادَتِهَا ! ، نَهايةِ الكَلِمَاتِ مِن دُعَائِهَا ! ، هُرُوب رِيحٍ مِن عَطرِهَا ! ،

كِدتُ أقُولُ لَهَا .. هَل أجدِ في مَضَارِبكُم الحَنِين ، حَنِينهَا هِيَ لا غَير ، ذَلِكَ الحَنِين الذِي خَطهُ مَحمُود دَرويش في قَصِيدَتهُ:

أحنُ إلى
خُبز أُمي
و قَهوَة أُمِي ،
و لَمسَةِ أُمِي ،
و تَكبُرُ فِيَّ الطُفُولةُ ،

يَوماً على صَدر يَوم ،
و أعشَقُ عُمري لأنِي ،
إذا مِتُ ،
أخجَلُ مِن دَمعِ أُمِي ،
خُذِينِي إذا عدتُ يَوماً ،
وِشَاحاً لِهَدبِكِ ،
و غَطّي عِظَامِي بِعُشبٍ ،
تَعمَّدَ مِن طُهرِ كَعبكِ ،
و شُدِّي وِثَاقِي ،
بِخُصلة شَعرٍ ،
بِخَيطٍ يُلوحُ في ذَيلِ ثُوبكِ ،
عَسَاني أصِيرُ إلَهاً ،
إلَهاً أصِيرُ ،
إذَا مَا لَمستُ قَرَارةَ قَلبُكِ ،
ضَعِينِي إذا مَا رَجَعتُ ،
وَقُوداً بِتَنورِ نَارِكِ ،
و حَبلُ غَسِيلٍ على سَطحِ دَارِكِ ،
لأنِي فَقدتُ الوقُوف ،

بِدُونَ صَلاةِ نَهَارِكِ ،
هَرمتُ ،
فَرُدي نَجُومَ الطُفُولة ،
حَتَى أُشَارِكَ ،
صِغار عَصَافِير ،
دَربَ الرُجُوعِ ،
لعُشّ انتِظَاري..

قُلتُ:
ـ لا ليسَ لَديَ أحد هُنَا .. و أنَا فَقدتُ وَالديَ في الحَربِ في سُورِيا، صَمَتت حَتى وَصَلَ ذَلِكَ السُكُونِ إلى شَفِير الحُزنِ البِدائِي ، و انهَمَر ملح دُموعِهَا على خُدُوشِ الألم ، فَرَاحت تُعَانِقُنِي بِشدَة لكَأنَهَا هِيَ مِن فَقَدت أبوَيهَا ، لم تَتَمَالك جُرُعَاتِ الحُزنِ في خَندِق الحُلقُوم لِتَخرِجَ بكُلِ عَواطِفِهَا على صَدرِي بَاكِيةً و مُتَأسِفَةً:
ـ أنَا آسِفة لِما حَدث لَكَ يا عَزِيزي ، لا زَالت الحَياة جَمِيلة أرجُوك لا تَقلَق و لا تَحزنْ..
هَل تَعرف غَصَة العُرُوبة! ؟..

هَذِهِ الغَصة التي ذُقنَاهَا في مَواطِن العُروبة ، و التَخَاذُلِ بينَ أبنَاءِ جِلدَتِنَا ، و الطَعنِ في ظَهرِ و ضَرب الخِنجَرِ مِنَ الخَلفِ في لَيلةٍ غَابَ فِيهَا الضَمِير و حَلَت مَكَانَهُ الخِيانة ، كَم تَمنَيتُ لَو استَقبَلَنَا أخُوةِ الدَمِ و القَضِية بأحضَانِهِم كمَا فَعلوا في ألمانِيا و النَمسا و بَلجِيكَا ، كُنَا نَعيشُ في دَوامِةِ الكَذبِ و النِفَاق ، و كُنَا نَتَفاخَر بِالكَرمِ و الجُودِ و السَخَاءِ الذي يتقاطَرُ مِن خُذلانِهم ، صَدقتْ أُمي رَحِمَهَا الله عِندَ ما قَالتْ:

يُمَة .. العَربْ لو فِيهِم خِير كَانُوا فَزَعُوا لفَلسطِين بال 45 ، بس بِقُول المَثَل يلي مَا فِيو خَير لأهلُو مَا فِيو خَير للنَاس.

يا الله..

كَم صَبرَ و عَانى شَعب فِلسطِينْ و نَحنُ في غَفلةِ اللهثِ خَلفَ أرزَاقِينَا ،

عُذَراً ..

أبنَاءِ القَضِيةِ و العُروبةِ ،

لَقد أنهَكُوا أحَلامَنَا في المَعَامِلِ و المَصَانِعِ و الضَرائِبِ و المُعتَقَلات ، غَيَبوا عَنَا الحَقِيقة حَتى صَارَ حَالَ شَعبِنَا كَحَالَكُم ، كَذَبوا عَلِينَا فَقالوا فِلسطِينَ لنا ، أعدوا الجِيوشِ و دَربُوهم ، و خَزَنوا الأسلِحة بِكَافَةِ ألوانِهَا التَدمِيرِية و التَخرِيبِية ، و لَكِن انقَلبَت

الثَعالب المَاكِرة مِن مُلوكٍ و رؤسَاءٍ و سَاسَة على الشُعُوبِ الضَعِيفة ، لتكُنْ هَذهِ الأوطَانِ لخدمَتَهُم و الجُلوسِ على انكِسارِاتِنَا ، عُذراً يا أبنَاء فِلسطِينْ فإن حَالكُم في التَشتُت غَلبَ حَالنا في مَواطِنِ المَنَافِي .

9

صِحتُ في أعمَاقِ شَوقِي..

آه .. إنَهُ صَباحُ العَيد ، صَبَاحُ عِيدهَا ، صَباح مَعركَةِ الأشوَاقِ مَع التُرابِ ، صَباحُ الهَدَايَا المُغَلفَة بالبَراءة ، لِمنْ أحملُ الهَدَايَا المُزِينة بِأشرِطَةِ اللهفَةِ ! ، في أيِّ حُضنٍ سَأُنزِلُ أثقَالِ الوَلهِ ! ، إلى مَن سَأقُول : كُلَ عَامٍ و أنتِ بِخَير.. !!

هل يَسمَعُنِي التُراب الذي ضمَ مَلامحَ الحَنِين.. !!

هَل أستَبدِلُ اسمَكِ بِنَزعَاتِ جُنُونِ الذَاكِرة.. !!

هَل أطلِقُ عَلِيكِ أسمُ : حَنِين .. ! بَدَلاً عَن : أُمي..

مِن حَقِ الشُعُوبِ الثَائِرة و الحُكُومَاتِ الجَائِرة و الدُولِ المُضرَمَة بالتَمَدُنِ أنْ تُطلِقَ على شَوارِعِهَا و مُدُنِهَا و مُؤسَسَاتِهَا المُستَفحِلة بالحَضَاراتِ بأسماءِ مُبدِعِيهَا و عُلمَائِهَا و ثُوارِهَا ، فَمثَلاً منذُ خُشُونةِ تَعَساتِنَا و نَحنُ نُرَدِدُ في كُلِ هُتَافٍ صَبَاحِي:

الله .. سُوريا .. بَشَار و بَس..

و قَد أطلَقُوا على الوَطن : سُوريَا الأسَد..

أسمِ الوَطن أصبَحَ مُلكَاً لِطَاغِية عُرِفَ بِاحتِلالهِ بالقُوةِ و الغَضبِ ، لم يَعُد الوَطن عُذرِي ، فَقَد فَضوا بَكَارةَ خَيراتِهِ و شَعبِهِ بمُبَارَكة

رُوسِية و شَاهدَين عَقُورَين كَلُبنان و إيرانِ ، و أنجَبَ لَنَا الأسَدُ شَبِيحةً و عَبِيداً يُقَاتِلونَ عَن نِظَامِ الطُغيَانِ حَتى يُلقوا حَتفَهُم الأخير ..خُذ مِثَلاً:

مِن الكِلابِ الضَارِية التي وَصَل عِواهَا إلى جِنِيف ذَلِك الفَأرِ الوَقحِ : بَشَارِ الجَعفَري..

المُمَثِلِ الدَائِم لنِظَامِ آلِهَتَه في مَقرِ الأُمَمِ المُتَحِدة في نِيويورك ، و يَتحَدث اللغُة العَرَبِية و الفَارِسِية و الفَرنِسية و الإنكِلِيزية بِطَلاقةٍ و لَيَاقَةٍ ، يومَاً مِن أيَامِ العِواءِ تَحتَ قُبَةِ جِنِيف رَاح يَسخرُ مِنَ السُعُودِية أمَامَ الأميرِكِيينَ قَائِلاً:

ـ تَخَيَلوا بِأنَ اسمَ بِلادهُم الوِلايَاتِ المُتَحِدة الأُوبامِية.

جَروٌ مِن أذِيالِ نِظَامِ الأسَدِ يَجعَرُ عَن بَولِ غَيرِهِ و هَوَ غَارقٌ بِمُستنقَعٍ مِنَ البَولِ ،

أوطَانٌ تُغتَصَب و تُقتَل و تُكَفَن بِأسمَاءِ قَادَةٍ و رُؤسَاءِ و حُكَامِ و مُلوكِ العَرب ، و تُغسَل بِدرنِ إنجَازَاتِهِم ، و تُكَفَنُ و تُدفن مَع شُهدَاءِ الوَطن حتى لا يُفتَضحَ أمَرهُم ،

كُلَ يَومٍ في وَطَنِي تُحَلقُ الأرواحُ المُغَمَسةِ بِالدِمَاء ،

فالقَاتِلُ سُورِي .. و المَقتُولُ سُورِي .. مِن أجلِ بَقَاءِ أو زَوَالِ ثَعلب و سَاحِر و وَارِث للإجرَامِ ، استَعمَلَ كُلَ أورَاقِ لُعبَتَه سِياسِياً و

عَسكَرِياً و طَائِفِياً ، قَدمَ للشَعِبِ كُل إنجَازَاتِهِ الجِنَائِية ، حَتى ظَهَرت عَورَاتَهُ و انكَشَفَت مُؤخِرَتَهُ و اتَضحَ نَتَنَهُ و سَنَدَهُ الرُوسِي الإيرَانِي ، في وَطَنِنَا العَرَبِي الشَوارِعُ كُلُهَا تَبكِي و تَئن المُؤسَسَاتِ تَنتَحِب و تَنُوح و التُرابُ يَجهَشُ بِكُلِ مُقَومَاتِ الدَمعِ ، أسمَائُهُم مَرشُوقةِ في كُلِ ثُقُوبِ الأحَلامِ ، أطيَافُهُم مَحشُوةِ في كُلِ فُرُوجِ الأيَامِ ، تَمَاثِيلَهُم جَاثِمَة في شُقوقِ الذَاكِرة ، رُعبُهُم أنَاخَ في كُلِ خُزوقِ يَقَظَتِنَا ، و صُورَهُم مُخَلدة على جُدرانِ الوَطنِ الحَزِين..

أجبَرونَا بِكُلِ وَسَائِلِ القَسوةِ و التَنكِيلِ و التَعذِيبِ على قولِ شَيءٍ مَسَ في عَقِيدَتِنَا ، فَفي عامِ 2011 / 24 / 8 م ، أظهَرتْ مَواقِعَ الثَورة السُورِية و الفَضَائِياتِ الإخبَارِية مَقطَعاً لمُواطنٍ سُوريٍ قَضَى نَحبَهُ تَحتَ مَخَالبِ عَبِيدِ و شَبِيحةِ الأسَدِ ، عِندَمَا حَاولوا أين يُجبِروهُ على قَولِ:

لا إلَه إلا الأسَد..

و رَاحُوا يَركَلُونهُ بِأقدَامِهم و عُصِيهم حَتى شَجوا رَأسَهُ و خَرَ مِن بَعدِهِا مُضَمَّخَاً بِدِمَائِهِ شَهيداً جَمِيلاً في سَبِيلِ الحُرِيةِ و الكَرامَةِ ، و تَكَرَر ذَاتَ المَشهَد في عَامِ 2012 / 20 / 10 م ، بِفِيديو مُسَرب لِأحَدِ مُرتَزِقَةِ و شَبِيحةِ الأسَدِ و هُو يُعَذِبُ طِفلاً لم يَبلُغَ الحُلم ، و يُجبِرَهُ على نُطِقِ تِلكَ الكَلِمة القَذِرة:

لا إلَه إلا الأسَد..

و فِي عَامِ 2012 / 19 / 2 م ، تَكرَرَ نَفسَ المَشهَد ، في أحَدِ المُستَشفِياتِ الحُكُومِية بَعد أنْ أجبَروا أحدِ الجَرحَى على نُطقِ شَهَادةِ الكُفرِ و الطُغيان رَاح الشَبِيحة بِرَكلِهِ بأقدَامِهم القَذِرة صَارِخِينَ قُول:

لا إلَه إلا الأسَد..

أبى الشَابُ قولَهَا ، حَتى أغرَقُوه بِالبَانزِين و حَرَقُوهُ و هُوَ على قَيدِ الحَياة.

كَأنَ الزَمنَ يُعِيدُ نَفسُهُ و يُكَررُ ذَاتَ المَشهَد ثَورَةِ تَحرِيرِ الجَزَائِرِ في 5 يُوليو مِن عَامِ 1830 م ، ضِدِ الإحتِلالِ الفَرَنسِي ، عِندَمَا أضحَت رِقَابِ الجَزائِريينَ الشُجعَانِ تُقطع بِلا رَحمَةٍ و لا شَفَقة ، و أرغَموهُم على عُبُودِية للإحتِلالِ ، فَمَا كَانَ مِنَ الأبطَالِ غَيرَ الرَفضِ و الجِهَادِ في سَبِيلِ تَحرِيرِ البِلادِ و العِبَادِ مِن طُغيَانِ الفَرنسِيين ،

إلى شَعبِ المِليُونِ شَهِيد..

تَحِية مُضَمخَة بِيُتمِي إلى شَهَامَتكُم المُتَرَجِلة على أعتَابِ النصرِ ، يا أحفَادَ عَبد القَادرِ الجَزائِري ، أمدُونَا بِهَالةِ قُوتِكُم ، بِجَلدِ تَحملِكُم ، بِهَيبَةِ غَضَبِكُم ، مِن الدِمَاء الشَرِيفة التي أخَاطَهَا التَارِيخ على

سَمَاءِ النَصرِ ، بَدأنَا ثُورتنَا المُبَارَكة لنُخَلِصَ البِلادِ و العِبَادِ مِن دِكتَاتُور الشَامِ مِن نُورِ ثُورَتِكُم ، و لا زِلنَا نَمدُ طَرِيقَنَا بِالنَصرِ مِن أورِدَةِ دِمَائِنَا ، لم نَعُد نُصَدِقَ الكَلمَاتِ و لا المُؤتَمراتِ و لا المُفَاوَضاتِ ، لا كَلمَة تَعلوا على صوتِ الرَصَاصِ ، و لا مؤتمرٌ أجمَلِ مِنْ تَحرِيرِ الوَطن ، و لا مُفَاوَضَاتِ مَعَ العَدو و الدِمَاءِ مُنهَمِرة على كُلِ حَفنَة تُراب ، و لا نَصرَ سَيتِم إلا مَعَكُم و بِكُم..

كَأنَ الزَمنَ يُعِيدُ نَفسُهُ و يُكَررُ ذَاتَ المَشهَد في الجَاهِلية ، و لكَأنِي أرى بِلالٍ بِن رَباحٍ الحَبَشِي و سِياطُ أبو جَهلٍ و أُمَية بن خَلف تُمَزِقُ جِلدَ العَبدِ الفَقِير ، و لَكَأني أستَمعُ إلى أبو جَهلٍ يَقُولُ لهُ :

اعزِف عَن دِينِ مُحَمَد..

و لَكَأني أُشَاهِدُ بِلال و دِمَائهُ تَتَدفقُ مِن ثَغرِهِ يَقُول:

أَحدٌ أحدْ .. أَحدٌ أحدْ .. أَحدٌ أحدْ..

حَنين .. سَأُسَمِي كُل أزِقَةِ الرُوحِ باسمِكِ ، و أعبُر كُلَ مَنافِذَ القَلبِ لأنحِتَ مِن هَواكِ نَصباً أزَلِياً أُسَمِيهِ أنتِ ، و على جُدرانِ الذَاكِرة سَأُعَلِقَ مَلامِحَكِ ، و لنْ أنسى سَاحَاتِ الهَوى بِنَثرِ عِطرَ نَظَراتُكِ..

أُمَاهْ .. هَل أنتِ هُنا! ..

أمسَكتْ Nina بِيَدِي، شَعرتُ بِدِفئِ مَشَاعِرَهَا ، بِنَظَراتِ عَواطِفَهَا ، بِصمتِهَا الحَزِين ، كَمَا أمسَكَ العَرب بِقَضِيتُهم ، قَالت:

ـ دَعنَا نَحتَسِي فُنجَاناً مِنَ القَهُوة..

رُحتُ أتأمَل إلحَاحَهَا على دَعوتَهَا ، و تَمسُكِهَا بِكفِي ، قُلتُ بِبَحةِ اليُتم:

ـ بكُلِ سُرورٍ..

مَشيتُ على مَعَابِرَ الحُزنِ و سِرتُ خَلفَهَا ،

و كَأنِي أسِيرِ خَلفَ أُمِي .. خَلفَ حَنِين..

أُمسِكُ بِأطرَافِ ثوبِهَا ، أُخبِئُ خَجَلِي مِن الغُرَباءِ ، كُنتُ أعتَقدُ بِأنَ هَذا الثوب هُو دِرعٌ نَتَوارى عَنهُ مِن أعيُونِ المُتَطفِلين ، كَبُرتُ و نَمى مَعي ذَلِكَ الدِرعُ ، و لَكِن رَحَلتِ و استبدَلَتِ الثوبَ بأكفَانٍ بِيضَاء ، لم أعُد أثِقُ بِالأثوابِ ، لأنِني أضحِيتُ بَعدَ رَحِيلِ صَاحِبَةِ الثوبِ عَارِياً مِنْ كُلِ شَيءٍ ، عَارِياً مِنَ السَعَادة مِنَ الحَنَانِ مِنَ الدِفئ ، هِيَ التي قَالت لي يَومَاً:

و مَن يُمسكُ بأثُوابِ رَحمَةَ الله لنْ يَشقى أبداً.

10

وَصلنَا إلى بَوابَة مَكتِبهَا..

وَضَعَت المَفتَاحَ في مَكَامِن القفلِ ، و تَسَربَ بِينَ ثَنَايَا القَلبِ آلامٍ مِنَ ذَاكِرَتِي المَعطُوبة ، كُنتُ دَائِمَاً أخَافُ الأبوَابَ و أقفَالهَا ، و لا زِالتْ أصواتُ المَفَاتِيحِ تَبعثُ في الجَوفِ ارتِعَاش لم أُشفَ مِنهُ ، ذَلِكَ الزَمنِ الجَمِيل بُوجُودِ حَنِينَ في كُلِ زَوَايَا الذَاكِرة ، بِبُزُوغِ طَلتِهَا مَع كُلِ شُرُوقِ يَومٍ جَمِيل ، بِتَأجُجِ رَوائِحِ البُنِ من كُلِ مَساحَاته الفَيروزِية ، باشتِعَالِ أحَادِيثَ المَسَاءِ في ضِيَافَةِ صَوت كَوكَبِ الشَرقِ أمُ كُلثُوم ، قَالتْ لِي يَومَاً ذَاتْ عِشَاء:

ـ لا تَقتَرِب إلى حَرمِ الدَولة .. لا يَنقُصُنَا آلامٍ للرَأس..

قُلتُ مُبتَسِمَاً و مُدَافِعَاً عَنْ مَبَادِئِي:

ـ و هَل للدَولة حَرم يا أُمَاه .. إنهُم لُصوص و تُجَارِ وَطن.

أغَارتْ لمَسَاتِ الخوفِ المَمزُوجَة بِشِيءٍ مِنَ الأسَى على تَفَاصِيل وَجهِهَا قَائِلةً:

ـ يا أُمِي .. إذا حَدَثَ لك مَكرُوه .. لنْ يُنقِذُكَ مِنْ قَبضَتِهِم أحد .. و سَأكُونُ أنَا ضَحِيَةِ الدُمُوعِ و البُكَاءِ و العَويلِ و أنتَ تُقَاسِمُ ضَجَرَ مُنفَرِدَاتِهم.

لم آبَه للجُبنِ الذي رَضَعَهُ آباؤنَا مِن ثَدِي نَظَامِ حِزبِ البَعثِ ، بَقدرِ أنْ أُخَفِفَ مِن خَوفِهَا قَائِلاً:

ـ لا عَلِيكِ يا أُمَاه كُلُ مَا تَرِيدِينَهُ سَوفَ يَحدُث ، لا تُشغِلِي بَالكُ.

رُحتُ أكتُبُ مُدَونَتِي السِياسِية في مَنزِلي في حَيِّ الشَاغُور الدِمَشقِي ، مُعلِنَاً على الوَرَقِ ثُورَتِي الصَامِتَة و مُجَاهِراً مَع الحِبرِ عِصيانِ الكَلِمَاتِ ضِدِ الأنظِمَةَ الفَاسِدةِ في البِلاد ، و رُغُم صِغَرَ سِنِي و نُضُوجِ قَلمَي لم أستَسلِم للخُوفِ الذي أنَاخ بِكَثِير مِنَ عَمَالِقةِ الأدَبِ و الكِتَابة خَلفَ قُضبانِ الصَمت ، كُلَ مَا استَفَزَنِي لأخرُجَ عَن المَألفُ ، مَألوفِ التَطبُع عَنِ الاستعَبَادِ هُوَ مَا يَدُور مِنْ مُجَامَلاتٍ كَاذِبة في الشَارعِ الدِمَشقِي بِالكَلِمَة المَسمُومَة : سُورِيا الله حَامِيهَا.

إنَهَا كِذبَة الشَعب .. أو الاسبِرِين أو رُبمَا المُضَادِ الحَيَوي أو لَعَلهُ الكُوكايين لتَخدِيرِ البَشَر ..

إنْ لم تُصَدِق انزِلْ إلى الشَوَارعِ و الأسوَاقِ و الأمَاكِنِ العَامَة في سُورِيا بَلْ في الوَطَنِ العَرَبِي ، دَقِق في مَلامِحِ النَاسِ و هَشَاشَةِ التَعبِ المُستفحِلِ على مَسَامَاتِهِم ، تَتَبع آثارِ تَجَاعِيدِ أبنَاءِ الثَلاثِينَ سَنَة ، رَاقِب الشَيبِ في رُؤوسِ مَن لم يَستَحقُونَ الشَيب ،

و هَل يَستَحقُ كُل هَذَا القَهر شَعبٌ كَهَذا.. !

لَقد نَجَحُوا في سَرِقَةِ لُقمَةِ الخُبزِ مِن أفواهِ الشُعُوبِ ، و نَهبِ مَا يَمتَلكُونَهُ مِن أحلامٍ بَرِيئة ،

و لَو سَألت أي مُواطِن سُوري مَا الشِيءِ الذِي تَطمحُ إليهِ بَعدَ هَذَا التَعب.. !! ..

رُبمَا سَتسمَعُ مِنهُ أحلامٍ كَأحلامِ الأمرِيكَانِ أو الأُورُوبِيين ،

لا البَتَة هَذهِ المَنَامَاتِ الشَاهِقة لم يَصِلوا إليهَا بَعد و إذَا بَقِينا في ضِيَافَةِ النِظَامِ البَعثِي مَدى العُمر أعِدُكَ بِأننا لنْ نحلُمَ بِهَا..

سَتَقُولَ لِي إذاً بِمَاذَا يَحلم ذَلِكَ المُواطِن المُهتَرئ قَوميًّا.. !

سَأقُولُ لَك كَمَا قَال أبِي يَومَاً:

ـ بِدنَا شَوِية كَرامَة بَس..

كَرَامَة .. هَذِهِ الكَلِمَة التي بِسَبَبِهَا تُذبحُ شُعُوبٍ كَالخِرافِ أمَامَ كَامِيراتِ و عَدسَاتِ العَالمِ العَربِي المُنَافِق و الغَربِي الكَاذِب بِلا مُسَاءلةَ قَانُونِية و لا رَقَابَة دُوَلِية ، و هَل نَحنُ جَائِعُونَ لِنَنتَفِض على الأنظِمة العَاهِرة.. !!

لا .. و رَبُ الثَورة ..

هَل تَرى السِياراتِ المُمَوّهةِ ، و مَواكبِ قُطَاعِ الطُرقِ الوزَارِية التي تُعكِرُ صَفوَ الطُرُقاتِ المُعَبدة مِن عَرَقِنَا ، و البُطُونِ المَحشُوة بِالدَسائِسِ و المَكَرِ ، و رَبطَاتِ العُنُقِ المُلوَثَة ، و القُصُورِ و

الشَالِيهَاتِ المُطَرزَة بِعنَاصِر الأمنِ و المُخَابَراتِ على مَرمَى مِن الوَطن ، و الحِسَاباتِ و الصَفَقَاتِ القَانُونِية التَي تَخدمُ مَصَالِحَ حَرَامِية الوَطن.. !!

كُلُهُ مِن تَعَبِنَا الله وكِيلَك .. و مَن لَحمِ أكتَافِنَا..

و إنْ صَمتَ الأجدَادِ و الآباءِ و رُضِوا على الذُلِ و المَهَانة ، فإنَ الأجيَالِ لنْ تَرضى و لَنْ تَقبل أنْ تَرى لُقمِهَا و كَرامَتَهَا في أمعَاءِ لُصُوصَ الوَطن ، و كَيفَ تَحدث الثُوراتِ يا عَزِيزِي إلا مِن بَعدِ أنْ وَصَلَ القَهر حَدَ الانفِجَار و وصَلت غَصةَ الذُلِ إلى الحُلقُومِ..

الحُكُومَاتِ العَربية .. مَاذَا أبقتْ للشُعُوبِ يا تُرى..

لَقد خَلَّفَ لَنَا هَذَا القَهرِ ، الشَابِ التُونِسي مُحَمد البُو عِزِيزِي ، أحَدِ الشُبَانِ العَاطِلِينَ عَن العَمل .. في مَواطنِ المِليونَ عَاطل عَنِ العَمل .. في يَومِ الجُمُعَة 17 دِيسَمبَر مِنْ عَامِ 2010 م ، قَامَ هَذا الشَابْ التُونِسِي بإضرَامِ النَارِ في جَسَدِهِ احتِجَاجَاً على بَلَدِية مَدِينةِ سِيدي بُو زيد ، مِن بَعدِ أن صَادَروا عَربَةِ الفَواكِهِ التي يقتَاتُ مِنهَا هُوَ و أهلُهُ ، و تَنديداً على رفضِ سُلُطَاتِ المُحَافَظَة لقَبولِ شَكوَى أرَادَ تَقدِيمُهَا على الشُرطِية التي صَفَعتهُ على وَجهِهِ التي تُدعى : فادِية حَمدي.

كَمَا قُلتُ لكَ القَضِية تَمسُ بِالكَرامَة لا غَير ،

على إثرِهَا اندَلَعَت المُظَاهَراتِ التي اجتَاحَت تُونِس و مَصر و سُورِيا ، لَقد كَانَ يَحقُ للصُوصِ مَا لا يَحقُ للشُعُوبِ ، يُقنِنُونَ القَرَارَاتِ للنَهبِ و السَلبِ ، و لنَهشِ مَا تَبقى مِن قوى الشَعبِ و الوُقوفِ على رُكَامِ عِظَامِنَا ، فَرحُتُ أكتُب ذلِكَ الوَجع الذي أهَانَ كَرَامَتنَا.

مَذلُولِينَ في قَلبِ أوطَانِنَا بكُلِ مَا أوتِي الذُلُ مِن مَهَانة..

فَمَا كَانتْ مِن أورَاقِي إلا أنْ وَقعتْ بأيدِي أولادِ الحَرامِ لِيَشوا بِي إلى مِيلِشياتِ الاحتِلاِل البَعثِي ، دَاهَمتْ الجَامِعة كلابِ البَعثِ و طَوَقُوا خِنَاقِ الحَرمِ الأدَبِي و قَيَدُونِي بِالسَلاسِلِ مِن معصَمِي و مِن قَدَميَ و خَمَروا رَأسِي بِغِطَاءٍ أسَودٍ مَانِعَاً للضَوءِ و طَارِدَاً للهَواءِ ، و أهَالوا عليَ الضَربَ بِكُلِ الطُرقِ و المُعِدَاتِ التي يَمتَلِكُونَهَا أمَامَ الطَلَبة حَتى أوصَلونِي إلى السِيارة المُخَابَراتِية المَاكِثة على أعتَابِ الجَامِعة رَكلاً و ضَرباً .. جُبنَاء .. و خَوَنَة..

سَارت بِي سِيَارةِ الإجرَامِ إلى فِرع فِلسطِين أو مَا يُسمَى فِرع : 235، أحدِ فرُوعِ شُعبَةِ المُخَابَراتِ العَسكَرِية في العَاصِمَة دِمَشق ، الذي يَرأسَهُ العَمِيد المُجرِم : مُحمَد خَلُّوف.

و الذي ذَاقَ طَعمَ الذُلِ في ذَلكَ الفِرع لَيسَ كَمَن سَمع ، و الذي أصَابِعَهُ في النَارِ لَيسَ كَمَن رأى ،

وَصَلت السِيارة النَازِية إلى مَقرِ إجرَامِهَا ، و أخرَجُونِي كَمَا يُخرِجُونَ كِيسَ قُمَامَة لأزحَفَ تَحتَ وَقعِ الرَكلِ و الضَربِ حَتى أصِلَ إلى الطَابِق الثَالثِ تَحَتَ الأرضِ..

يا الله أينَ أنَا.. !

و بَعدَ أنْ فَكَ قَيدِي و نَزعَ الكِيس الذي مَنَعَنِي عَن رُؤيَةِ مَا يَجري حَولِي ، رَفعتُ وَجهِي نَحَو رَجُلٍ أصَلع وَجهَهُ أقرب إلى الكُفرِ برَميَةِ بُغيٍ ، مَا إنْ نَظرتُ إليهِ حَتى لَطَمَنِي على وَجهِي لأفقِدَ وَعِيي ، أفرغَ عَليَ إنَاءٍ منَ المَاء ، فأمَرَنِي أنْ أخلعَ ثِيابِي بَعد أن استِيقَظتُ مِن لَهِيبِ اللطَمةِ ، و رَمى بِي في غُرفة مَسَاحتُهَا مترٍ بِمتر .. عِشتُ بِهَا أو مِتُ فِيهَا تِسعَةَ أشهُرٍ ، لا اسمَعُ في غَيَاهِيبِ الظَلامِ سِوى أصَواتِ الأقفَالِ و إغلاقِ الأبوابِ و فَتحِهَا .. و إلى هَذهِ اللحَظَة أُعَانِي مِن أزمَةٍ نَفسيةٍ مَعَ الأبوابِ و الأقفَالِ و أصواتِ المَفَاتِيح.

11

في مَكتَبٍ مَحشوٍ بِالذَاكِرة..

تَغفُو على تُخمَةِ جُدرَانِهِ صُورٌ يَصعبُ على العَقلِ عدُهَا ، وُجُوهٌ قَطَعوا مِن العُمرِ شَيباً مُشبَعَاً ، و مَلامِحَ مُتَأفِفَة بينَهَا و بِينَ الحَياة مَسِيرةَ ضَجر ، و تَجَاعِيد مُتَرهِلة تَدلُكَ على شَقاءِ صَاحِبِهَا ، لا أعلم مِنْ أين أتَى هَذَا الصَقِيع ، إنَهُ زَمهَرِيرِ وقُوفَ الزَمَنِ على أعيُنِهِم التي يَجتَاحُهَا دَمَارَ الهَرَم ، رُبمَا تُكن صُورُهم .. سُكَانَ هَذَا الكُوكَب المُضطَرِم بِحُطَامِ الآباءِ ، أو مَا تَبقَى مِن أثاثٍ قَدِيم في آخِرِ أرصِدَةِ العُمِر ، هَل أصبَحتْ الجُدرانِ مُمَسمَرة لمَى تَبقَى مِن جُنُونِ الذَاكِرة .. ! أم أضحَت مَقبَرة للحَنِين و المَاضِي فقَط .. ! كُل يَومٍ نَلتَقطُ في أجهِزَتِنَا الحَدِيثة كَمٌ هَائِلٌ مِنَ الصُورِ الفُوتِوغرَافِية ، و نَحشو هَاردَاتِنَا بِلحَظَاتٍ لَامعة..

لَيسَ فَقط الجُدرانِ وَحدَهَا مَن تَحمِل قُصَاصَاتِ المَاضِي المُلوَنة أو رُبمَا المُعتَقة و حَسب .. !! حَتى حَائِطَ القَلب يَستلقِي على شَراييِنِهِ ذِكرَياتٍ مُبَطَنة ، كَم كُنتُ أتَمنى أن تُوقِفَ آلةَ الزَمَانِ تِلكَ اللحَظَاتِ المُشبَعة بالأُمُومَة ، و لَكنْ إنَ للصُورِ فِيهَا مِنْ الظُلم مَا يَدعُوكَ للبُكَاء كُلَ مَا رَأيتَ صُورَهُم مُستلقِية على جُدرانِ يُتمَكَ..

قُلتُ لَهَا يَومَاً :

ـ أرُيدُ أنْ ألتقِطَ بَعضَ الصُورِ مَعكِ..

قَالتْ بلِسانِ الأسَى:

ـ ألتقَط أجمَلهَا قَبلَ نَفاذ العُمُرِ..

لم أتمَالكْ دُمُوعِي يَومَهَا ، و لم أفهَم مَا معنى أنْ تَسِيل دُموعِي في حَضرَتِهَا ، قُلتُ:

ـ أطَالَ اللهُ بِعُمُرِكِ .. و جَعلكِ نُوراً لِهَذا البِيت..

بَعدَ رَحِيلها أدرَكتُ مَا مَعنَى أنْ تَلتَقِط الصُور مَع مَن تَقَاسَمتَ مَعهُم أحَلامَكَ الطُفُولِية..

بَعدَ رَحِيل مَنْ كُنتَ هَمَهم و سَهرهم ، مَن كُنتَ مَشرُوعاً لسَعَادَتِهِم و حُزنِهِم ، سَتعَلم كَم كُنتَ مُمتَلِئاً بِهم ، ذَلِكَ الرَحِيل الذِي أفقَدكَ تَوازِنُكَ مِن بَعدِ أنْ أهلتَ عَلى شِفَاهِهِم تُرابَ ألمَكَ ، سَتنهَالُ عَلِيكَ الدُنِيا لَطمَاً بِكَافَةِ مَصَائبَهَا ، و كَمَا وَاريتَهُم في أكفَانِ سَفَرهم الأخَير الذي لنْ يَعُودوا فِيهِ إلا بِالأحَلام .. سَتُوارِيكَ صُورُهُم و ألمِ الحَنِينِ لهُم يَقَظَةً و مَنَامَاً..

لنْ تَشفَعَ لَكَ الذَاكِرة أمَام حَنِينَكَ لَهُم .. سَينزِفُ مِن جِراحِ الذَاكِرة أحَادِيثَهم و رَوائِحَ ثِيابَهم و جَلسَاتهم الصَاخِبة بِالبَساطة ، سَتحرُقُكَ خُدوشَ مَاضيهِم مَعَك لِيشتَعِلَ بِكَ العُويل كُلَمَا احتجتَ لَهُم..

كَانت صُورُهم جَمِيلة .. كَأكفَانهم النَقِية قَبل الوَدَاع .. أرَادوا أن يُودِعُونَا وَسَطَ البِياض ، أحبُوا لَنَا فِرَاقَاً نَاصِعَاً ، لَنَأخُذَ مَعَهُم آخرَ صُورَة بُكَائِية ، لنَلتَقِطَ مَعَهُم الحُزن ، لأنَ هَذِهِ الصُور لا تَلِيقُ بِهَا الابتِسَامَات و لا الضَحكَات ، إنَهَا صُورٌ للحِدَادِ و التَنَاقُض ، هُم على أعنَاقِ الجَنَائِزِ مُضَمخينَ بالبَيَاضِ و العُطُور ، و نَحنُ في وَسَطِ المُواسِين و المُعزِين غَارِقِينَ بِالسَوادِ و الحِدَاد .. يا تُرى هَل هُم في عُرسٍ و نَحنُ في عَزاء.. !!

أتَسَائَل عَن أيتَام أُمَتِنَا ! ..

لِمَن رَحَلَ مِن أُمَهَاتِهم إلى السَمَاءِ و لم يَروهَا ، أَتُرَاهُم أصبَحوا فَنَانُون لرَسمِ أُمهَاتِهم على نَصاعِ الذَاكِرة !! ..

و ماذَا تُفِيد الذَاكِرة لِمن لا أُمَ لهُ.. !

تُشِير إحصَائِيات جُنُونِية في مؤسَسَاتِ الأيتَامِ العَالمِية ، بِأنَ نِسبَةِ الذِين يَضَعُونَ صُور أُمهَاتِهم وَصَلَ إلى الخَيال ، و الذِين لا يَعرِفونَ أمَهَاتِهم رَسموا صُورَهُن على الجُدرانِ حَتى لا يَشعُروا بالوِحدة ، و في اعتِقَادِي الصُور هِيَ مِن تَجعَلكُ و حِيداً و حَزِينَاً لأنَهَا تُذكِركَ بالنَقصِ و الحَنِين و المَاضِي الذي لنْ يَعُود.

حَنِين .. صُورُهَا في مَنزِلِي أينمَا اتجَهت ، في غُرفَة نَومِي و في الصَالة و على شاشة جوَالي المَحمول و جِهَازَ الكمبِيوترِ و في

سِيارَتِي و على دَفتَرِ مُذَكرَاتِي و في الذَاكِرة و على ألمِ القلبِ و بين كُلِ دَمَعة و أمَامَ كُلِ حُزن و خَلفَ كُلِ وَجَع و عِندَ الفَرح و قَبل العَملِ و بعَدَ النُومِ و في الأحَلامِ و الأوهَامِ و اليَقَظة و في مَعَارِكِ الحَياة و بَعد كُل شوطِ يَومِي و قَبل الهُدوء و بَعد غُروبِ الغَضب ..

هَكَذا هِيَ حَنِين .. ممُتَلِئة بي ، تُقلبُ صَفَحَات مِزَاجِي على جَمرِ الذَاكِرة ، كُلمَا أعَادت هَذِهِ الصُور لي شَيئاً مِن المَاضِي الأنِيق ..

يا تُرى هَل تَذكُرُنِي حَنِين كَمَا أذكُرُهَا هَذِهِ اللحَظة! ..

لا أعلم مَن هُم الأموات ، هل هُم مَن حَثونَا عَليهِم التُراب أم من أغرقُونَا في مَقَابِر الذَاكِرة ! ..

و لِطُغَاة العَرب أفكَار تُنسِي المُواطِن العَربِي حَليبَ أمِهِ ، و تَجعُلكَ تَذكُرُهُم مِن انبلاجِ أجَفَانِ الصَباحِ حَتى أُفولِ العَقلِ في سَرِير النُومِ..

صُورُهُم في كُلِ مَكَان ، هُنَا و هُنَاك ، و تَمَاثِيلَهُم خَالِدة في حَلقِ كُلِ شَارعٍ و مُؤسَسَة حُكُومِية ، فَمنذُ أن رَشَحَ نَفسَهُ و تَسلقَ على أعنَاقِ السُلطة و هُو يَنحِتُ لَنَا إنجَازَاتَهُ عَبرَ نَصبٍ حَجَرَي حَتى لا تَنسَاهُ الشُعُوب ، و مَنْ قَال لَكَ بِأننَا نَنسى كُلَ هَذِهِ الأوتَاد العَالِقة في شَرَايينَ الوَطن.. !

جَعَلوا مِن الوَطنِ مَعرِضَاً فوتُوغرَافِياً لِنَشرِ غَسِيلِهم المُتَسخِ بالدِمَاء ، مُتَسخٌ بإرهَابِ الشُعُوبِ ، مُتَسخٌ بالاعتِقَالاتِ السِياسِية ، مُتَسخٌ بالاختِفاءاتِ القَسرِية ، مُتَسخٌ بامتِصَاصِ خَيراتِ البِلادِ ، مُتَسِخٌ بالنَفِي و التَهجِير ، مُتَسِخٌ بِنفثِ سُمُومِ عَقائِدَهم في سِجنِ الوَطنِ الكَبِير..

ابتَسمَ الشَعبُ في ذَلِكَ الزَمنِ الجَمِيل عِندمَا شَاهَدت الأعيُنِ عَبرَ مِضخَاتِ الأخبَارِ العَرَبِية و العَالمِية ذَلِكَ المَشهد الذي أبكَى المُهَجرِين و المنَفِيين و أمَهَاتِ المُعتَقَلِين و المُطَارَدِينَ بِتُهَمٍ سِياسِية في مَدِينَةِ دَرعَا في 30 آذار 2011 م ..

عِندَمَا أسَقطَ الثُوارِ تمثَالِ المُجرِم حَافِظَ الأسَد و مَزقوا صَور ابنَهُ الفَأر بَشَارِ الأسَدِ وَسَطَ ذُهُولٍ شَعبِ مُرعِبْ ، و كَعَادةِ المُجرِمِين لم يُؤجِل سَفَاحَ البِلادِ رُؤيَةِ تِمثَالِ المُجرم الأب ينهَار بِهَذِهِ البَسَاطَة ، ليُرسِل رَتَلاً مِن الدَبَابَاتِ مِن الفِرقة الأولى و يَفتَعِل تِلَكَ المَجزَرة التي شَاهَدَهَا العَالم الأخرس..

و في 15 نِيسان 2011 م ، تَكرَرَ المَشهَد ذَاتَهُ في مَدينةِ الرَستَن بِريفِ حُمص حَيثُ قَامَ الأهَالي بَتدمِير تِمثَالِ الأسَد و قَدمَوا رأسَهُ هَدِية لأهَالي الرَستَن الثَائِرة..

و واصَل أهَالي دِير الزُور 2011 . 4 . 22 م حَيثُ قَامَ الثُوارِ بإحَراقِ تمثَالِ شَقِيقِ مُجرمِ البِلادِ و سَفَاحِهَا بَاسِل الأسَد ..

و في 2011 . 6 . 10 م تَم إزَالةِ تِمثَال الدِكتَاتُور حَافِظَ الأسَد في مَدِينَةِ حَمَاة ، و لَكِن هَذِهِ المَرة النِظَام من قَام بِإزَالتَهُ ، لمُصَادَفة يَومِ مَوتِ ذَلكِ المُجرمِ في 2011 . 6 . 11 م ، و تُعَد هَذهِ مَهَانة كُبرى للنِظَام ، حتى ليُقَال أنَ بعضَ أعمِدةِ النِظَام اعتَبَر ذلك أقسَى وأبَلَغَ إهَانَة مِن تَدمِيره على يَدي الحَمَويين..!

و التَمَاثِيل في مَدِينة الطَبقَة و الرَقة تَم إزَالتَهَا بِأيَادي الأبطَال ، فَالشَعبُ لم يَعُد يَرغب برؤيَةِ هَذهِ الصُور و التَمَاثِيل التي شَلتْ حَركَةِ البِلادِ مِنذُ خَمسِينَ سَنة ، طَفَحَ الكَيل و ثَارَ الشَعب ، و لا رَاد لهَذِهِ الحُشُودِ الثَائِرة سِوى الموت .

12

.. Nina

ـ تَفَضل اجلِس..

نينا .. ثَلاثِينِية الهوى ، أعطَاهَا شَقَاءِ الحَكَايَاتِ في دَارِ العَجَزة سِنَ العَجزِ ، و قَلِيلاً مِنَ الشَيبِ المُتَوَارِي بِينَ أزقَةِ شَعرِهَا الأشقَر ، كُنتُ على يَقِين بِأنَهَا تَحمِلُ في رَحمِ قَلبِهَا أجنَة قَصَصٍ يَصعُبُ على العَقلِ مَحوَهَا ، كُنتُ مُتَرددًا أنْ تَشِي لِي بِأسرَارِ الدَارِ و فَجَائِع حِكَايَاتِها ، كَانَ السُؤالُ على شَابِهَةِ غَصة أو رُبمَا طَعنة لمِهنَتِهَا ، و لَكن هُنَاك في الأحشَاءِ سيوفًا متَطفّلة تَتَبارز لأسأل عَما يَجري في أحشَاءِ هَذِهِ الدَار ، و رَاحَت الأشَواق تَسِير بِي إلى فَنَاءِ بِيتنا ..

إلى بِيتِ حَنِين،

ـ يُمَة ..

ـ أيوَا حَبِيبي و بَعد عُمري..

ـ مُمكِن أسَأل سُؤال.. !

نَظَرَتْ إليَّ بِتأمُلِ الوَهَلِ ، كَأنَهَا لا تُرِيد أنْ تَستَمع إلى سُؤالي ، لم تَعُد تَقوى على صَبرِهَا أمَامَ انفِعَالاتِي و حُمَمِ تَقلُبَاتِي السِياسِية ضَدّ

غَطرَسَةِ القَوانِين التَعَسُفِية التِي تَعصِفُ بالشَعبِ و مُستَقبَلِ البِلادِ ، قَالتْ قَبَل تَبجُحِي بِالسُؤال:

شُوفْ يُمَة إذا سُؤَال سِياسِي .. فَأنَا تَعبتْ .. ليسَ عِندي أجوِبة على أسئلتكْ التي رُحتَ ضَحِيتَها في المُعتَقَلاتْ البَعثِية سَنة و ثَمَانِية أشهُر .. لم يَعُد القَلبْ يَتَحَمَل مَزِيداً مِن الصَبرِ و التَحمُل .. اقلِب هَذِهِ الصَفحَة و كُنْ صَاحب تَسَاؤلات اجتمَاعِية بَعِيداً عنْ الفِتَنْ السِياسِية..

ابتَلعتُ مَع الصَفَحَاتِ الاجتَمَاعِية كُلَ هَذه التَسَاؤلاتِ في قَلبِي ، حتى أضحَى قَلبي مَقبَرة لِكَثِير مِن الاستفهَامَاتِ و الاستفسَاراتِ التِي تَربى سَلَفَنَا عَلى عَدمِ الجَوابِ عَلِيهَا ، من أبنَاءِ الشَعبِ و الحَاشِية المُطَبِلِين لِرمُوزِ النِظَامِ السُوري.

سُؤالٌ وَاحِدٌ فَقط ،

ضَاعَ مِنْ عُمري عِشرُونَ شَهراً في المُنفَرِدَاتِ و المُعتَقَلاتِ السِياسِية في وَطنِي ، هُنَاكَ تَحتَ تَسَاؤلاتِ التُرابِ تَتَوَارى كَثِيراً مِن أجوِبَةِ المَذَلة ، و كَثِيراً مِنَ الفَرَاغَاتِ الانفِرادِية التِي لا تَكفِي للأُكسِجِينْ بِحَدِ ذَاتِهِ ، فَكِيف يَجلسُ بِهَا إنسَانٌ عَرِيان مُجردٌ مِن كُلِ أثُوابِ الكَرامَة.. !

هُنَاك تَحتَ ظَلامِ الظَلامِ خَالٍ أنتَ مِنْ كُلِ مَلذَاتِ الضَوءِ و رَفَاهِيةِ الهَواء ، يَحرمُ عَلِيكَ كُلَ شَيء حَتى أنْ تُفَكِر و التَفكِير رِدة كُبرى تَأخُذُكَ إلى الجُنُون ، جُنُونِ أن تَتَنفَس أنْ تَحلُم أنْ تَعُود إلى مَنزِلِكَ أنْ تُقبِل يَدَ وَالِديكَ أنْ تُسَامِحَ صَديقكَ على أمرٍ تَافِهٍ لم يَتَقَصد مُضَايَقتَكَ بِهِ أنْ تَنَام على فِراشِكَ أنْ تَغسل وَجهَك في صَابُونٍ مُعَطَرٍ أنْ تَأكُل الطَعَام الذي تَكرَهُ ، أنْ تَعُودَ في وَقتٍ مُتَأخرٍ إلى المنَزلِ و تَجد وَالِدَكَ يَنتَظِرُكَ .. فَقط وَقتَهَا تَقول:

بِدي أطلعَ مِن هَالحَبس و مَا بِدي شِي..

هَل رَأيتَ هَذا الوَطن ، عَفُواً هَذَا المُعتَقل! ..

كُلَ شِيء في هَذَا الوَطن يَدُعوكَ إلى عَدمِ الاقتَرابِ إلى المَحضُورات ، و أولُهَا السُؤال..

مِن هُنَا انطَلقَ اضطهَادِ الأسئِلة ، هُنَا و على هَذا الوَجع هُم مَن يَسأل .. و عَلِيكَ أنْ تُجِيب ، يَسألونكَ عَن كُلِ تَفَاصِيلِ حَياتِكَ ، و تُرُوضُ على الخَشِية و الخُوف لأنَك مُلاحَق و مُراقَب ، و كُلِ الأجدَادِ و الآباءِ و حَتى أصدِقاءِ السوءِ يُلاحِقُونَكَ بِالمَقُولة المَشهُورة:

لا تَحكِي الجُدرانْ لَهَا آذانْ..

مِنْ هُنا رَضعنَا مِن السَادِية التِي تَربى عَلِيهَا أجدَادَنَا ، رُبمَا خوفهُم أفقَدَهُم لَذَة الحُرِية ، فَتعَايَشُوا مَع العُبُودِية و أرادوا لنَا عُبُودِية تَلِيقُ بِانكِسارَاتنَا و ضَعفِنَا ..

و لَكِنْ هَيهَات..

ضَحِكَ جِيل الطَاقَة و وسَائِل الاتِصَالاتِ السَرِيعة و مَواقِع التَواصُلِ الإلكُترُونِي و مُوضِةِ الهُواتِفِ الذَكِية في عَالمِ السُرعة على أجِيالٍ دَاسَتهَا حَوافِر الرُعبِ و الفَشَل حَتى بَدت نَواجِذَها قَائِلة:

المَوت و لا المَذَلة..

إنْ كُنتُم شَرِبتُم مِن كُؤوسِ التَوجِس و الحَذَر فَحنُ مَخنُوقِينَ إلى السَمَاء ، فَلم تَعُد تُخدِرُنَا التَسَاؤلاتِ و الاستفهَامَاتِ و لا تَرقُب الأجوبةَ التَافِهَة و النِفَاقِ المُتَوارث كَابراً عَن كَابِرٍ و مُنَافِقاً عَن مُنَافِقٍ ، و ربُ الحُرِية لَو شَقتُم عَنْ قُلوبنِا لوَجدُتم نَبَضاتِنَا تَقُول: حِسوا فِينَا .. لم نَعُد نَقوى على هَذَا الكَذِبِ و النِفَاقِ على حِسَابِ كَرامِتنَا و حُرِيتِنَا.

المُواطِن يُوَجّه لَهُ سُؤال دَومَاً مِنْ أينَ لكَ هَذا..

يُرِيدونَ مُقَاسَمتُهُ لُقمَتَهُ و مَالهُ و عِيالهُ و حَتى مُضَاجَعةَ زَوجَتَهُ في قَعرِ فِراشِهِ ، و إنْ أنجَبتَ طِفَلاً تُقدِمهُ قُربانٌ للوَطن ..

كَذَّاب يا أنْتَ ، على مَن تَكذب !

أي وَطنٌ هَذا الذي تَتَحدث عَنهُ !

و بالنَسبة للمَسؤولين إن خَطَر بِبَالكَ أنْ تَتَساءل بِينَكَ و بين نَفسَك مِن أينَ لهُ هَذا! ..

فَسوفَ تَذهَبُ في خَبرِ كَان أو بِصَرِيح العَبَارة إلى فِرعِ كَانَ و أخَواتِهَا ، و بالمُنَاسَبة لَقد طُفتُ بِأفرُع كان كُلِهَا وَ حتّى الخبَر و الضَّمير تشرَّفت بِرؤيَتهم علنًا ، و نِعمَ الاستقبَال و نِعمَ الحَفَاوة و نِعمَ الضِيافة كانَت هِي ، فلَقد كُنتُ أتمنى هَذا الترحَاب لعَدو .. آي و اللهِ..

سُؤالٌ وَاحدٌ فَقط تُوجهُ إلى رَبِ البِلادِ و طَبِيبُهَا و لِصُهَا ، يُحِيلُكَ إلى أقربْ مَقبَرة قَسرِية بِلا جِنَازة شَعبِية و لا تَوابِيت طَائِفِية و لا شَاهِدة وَهمِية ، فَقط تَسأل بِكُلِ عَفوية:

مِنْ أينَ لكَ هَذا.. !

الحَاج رِفعَت الأسد.

عَمّ سَفَّاحِ البَلادِ و جَزَّارِهَا بَشارِ الأسَدِ و شَقِيقِ المُجرم حَافِظَ الأسَد ، فَأرٌ يَبلغُ مِن الإجرامِ ثَمَانِية و سَبعُونَ عَامَاً ، صَنعَ مِن ثَروتِهِ العَقَارِية في مَواطنِ الحُبِ و الرُومنسِية البَارِيسِية اسمَاً يَليقُ

بِمُختَلسِي الوَطن ، على حِين غَرة جَاء بَعدَ خَمسَة و عِشرونَ عَامَاً مَنْ يَقُولُ لَهُ:

مِنْ أينَ لكَ هَذا.. !

حَيثُ صَدَرتْ مُذَكَرة بِتُوقِيفه في فَرنسَا بِتُهمَةِ التَهرِيبِ الضَرِيبِي و غَسلِ الأموَالِ ، ضَع نُقطَتِين على كَلَمةِ غَسِيلِ الأموَالِ ، فإنهَا شَقِيقة مُتَلازِمة في عُنقهِ بِحَقِ الحَموِيينَ على وَزنِ غَسِلِ الرُؤوسِ و شَلالِاتِ الدِمَاء..

و على أثرِ هَذهِ الاتهَامَاتِ المُؤكَدَة ، كَثُرت الأيَادي و الأصُوات عِندمَا شَاهَدُوهُ قَد سَقطَ تَحتَ أقفَاصِ القَدر ، و تَتَهمهُ مُنظَمةِ : شِيربا ، المُختَصة بالدِفَاعِ عَن ضَحَايَا الجَرائِمِ الاقتِصَادِية بأنَ رِفعَت الأسَد الذِي يُقِيمُ في الثَمَانِينِيات في بِرِيطَانِيا و فَرنسَا و إسبَانِيا بِجَمعِ ثَروَتِهِ الكَبِيرة بِفَضلِ الأموَالِ التي جَاءَ بِهَا مِنَ الفَسَادِ و اختِلاسِ أموَالِ الوَطن في سُورِيا ، و شَمَلت اللائِحَة قَصراً و مَزرَعةً للخِيلِ في ضَاحِيةِ بَارِيس ، و مُمتَلكَاتٍ عَقَارِية في أغنَى أحيَاءِ بَارِيس بِينَهَا فَنَادِق و مَبنَيين كَامِلِين و مَكَاتب في لُيون ، حَيثُ قَالَ المُحَقِقُون إنَهُ اشتَرى هَذهِ المُمتَلكَاتِ بِينِ عَامِ 1984 م وصُولهُ إلى فَرنسَا مَع مُرافِقِيهِ عَامِ 1988 م..

بَعدَ أنْ قَدَمَ لَهُ الرَئِيس الفَرنِسي فرَانسُوا مِيتران وِسَام بِلقبِ فَاس ، هَا هُوَ التَارِيخ يُقَدِم لَهُ وِسَام اللصُوصِية و السَرِقة و تَبِييضِ أموَالِ الوَطن ، و نَاهِيكَ عَن المَجَازِر التي ارتَكَبهَا في الثَمَانِينِيات ، إلى مُعَارضتنَا المُبَجَلة بِكُلِ بُطُونِهَا المُنتَفِخة في فَنَادِقِ استنبُولِ أُعِيد السُؤالِ لكُم:

مِنْ أينَ لَكُمْ هَذا . ! ..

13

نِينا ..

ـ كَيفَ هِي قَهوتُك أُستَاذا! ..

سُؤالٌ عَبَرَنِي بِكُلِ رَوائِحِهِ و طُقُوسِهِ الشَرقِية ،

كِدتُ أقُولُ لَهَا كَمَا تَصنَعَهَا حَنِين ، كَمَا تَغلِيهَا و تُضِيفُ عَلِيهَا رُذَاذَ البُنِ المَسحوقِ بالحُبِ ، كَأنَاقَةِ الفَنَاجِينِ الدِمَشقِية بِزَخَارِفِهَا الفَارِسِية ، كَكَأسَ المَاءِ المُقطرِ مِنَ عَبَقِهِ رَائِحةِ مَاءِ الزَهرِ ، كَاليَاسَمِين المُتَسلِلِ على أحلامِ صَبَاحِنَا ، كَرائِحَةِ شَجرَةِ اللِيمونِ و دَالِيةِ العِنَبِ المُتَطَفِلة على سَوارِي طُفُولَتِنَا ، كَشَذا أُمي و طِيبَتِهَا ، كلَمسَتِهَا و ضَحكَتِهَا ، كنَظرَتِهَا و صَمتِهَا ، كَرَحِيلِ مَن مَشتْ أشبَاحَهُم على دَربِ الذَاكِرة ، كَآخِرِ قَبضَةَ تُرابٍ ، كَآخرِ لَمسَة عِتابٍ..

و على مَن أعتَب يا تُرى !

أ على الأقدَارِ التي حَالتْ بِينَ هَذا اليُتمِ الذي تَجرعتُهُ و أنا على أبواب العِشرِينِيات ! ، أم على صَقِيعِ المَهجرِ و كَوابِيسه الجَلِيدِية!..

و بَعَد هَذا الدِوار الخَيَالي قُلتُ:

ـ آنِسةَ نينا .. أحُبُ قَهوَتِي عَرَبِية خَالِية مِنَ السُكَر، يَتِيمَةً مِن كُلِ رَوائِحِ الأبُوة ، سَعِيدة بِعَبقِ الهَيلِ ، صَامِتة كَالدُولِ المُستَعرِبة ، تَعيسَة كَاحتَلالِ فِلسطِين ، ثَائِرة كَحَوامِلِ قَضَايانَا ، شَهِية كَرُقَعِ الذَاكِرة ، أُحبُهَا سَودَاء كَالحِدَاد ، و أَكرَهُهَا خَرِيفِية الضَجِيجِ المُبَعثَر ، أحبِهُا بِوجهِهَا الأصلِي و أكرَهُ الأقنِعَة المُتسَولِة حَولَ ضِفَافِهَا ، لا أحِبُ نِفَاقِ الأصَابِعِ إذا وُضِعَتْ فِي فَمِهَا ، حَرُمَت عَليَّ كُلَ الأصَابِعِ بَعدَ أصبَعِها ، أصَابِعَ أُمُي .. أصَابِعَ حَنِينْ ، أنَامِلَ اليَاسَمِين..

ضَحِكَتْ نينا مِنْ أعمَاقِ قَلبِهَا ، و لَكَأنهَا لأولِ مَرة تَضحَك ، و رَاحَت القَهقَهة تَتَعالى بِفوضى عَارِمة ، شَعرتُ بِالسَعَادة لأنَنَي سَبَبتُ لَهَا هَذهِ الانطَلاقة السَعِيدة في صَبَاحِ الكَمنجَة النَمسَاوية ، هُنَا في هَذهِ المَدِينة التي لا تَعزفُ الكمنجَاتِ نُوتَاتِهَا إلا حُزنَاً ، و إنْ تَألقت قَلِيلاً و ارتَدت زُرقَةِ الدَانُوبِ سَتظهَرُ في سِمفُونِيةِ حُزنِهَا سَعَادة تَجعَلكُ تَرتَطمُ طَرَباً ، اضحَكِي آنِسَتِي .. اسخَرِي مِن يُتمِي .. و اجلُبِي مَع صَهِيل الضَحكِ آلامِ دُمُوعكِ الرِيفِية ، و بَعدَ أن احمَرّ وَجهُهَا العنَابِي و تَخَضبَت وَجنَتَاهَا بِفرَاءِ المُشمُشِ البَلَدِي ، و تَدفَقت الدَموعُ مِنَ الآمَاقِ فَرحَاً ، رَاحت تَعتَذرُ لي قَائِلةً:

ـ أنَا آسِف لم أتَقَصد السُخرِية .. و لَكِن قَهوة كَهَذِهِ بِحَاجة إلى شِيفِ السُلطَان عَبدَ الحَميد الثَاني ، و أنصَارَهُ الدِمشقِيين .. لِيعُدُوهَا لَك..

تُعجِبُني نينا بِثَقَافتِهَا المُتَجَرِدة مِن الكَراهِية و الحَقد ، قُلتُ:

ـ مَا نوعُ القَهُوة التي سُوف أحتَسِيهَا إذاً! ..

صَمتتْ و هِي تُراقِبُ النَافِذة ، كَانَ فِيهَا شِيء مِن حَنِين ، كَانتْ لا تُجِيب على الأشِياء إلا بَعد مُوجَزٍ مِنَ الصَمتْ ، لم يَكُنْ ذلِكَ غَباءً ، و إنمَا كَان فِيهَا حِنكةَ الأمِيراتِ العُثمَانِيات ، و فِطنَةِ الأُمهَاتِ اللواتِي أخذنَ دَورَ الجَداتِ في أوائِل العُمر ، قَالتْ:

ـ قَهوة غَربِية مَمزوجَة مَعَ الحَلِيب .. قَهوة نَمسَاوِية..

سَوفَ أقُولُ لَكَ بَأنهُم شُعُوبٌ ذَكِية و مُعتَدَلِةِ المِزَاج..

بِقَهوتِهم ، و مُوسِيقَاهُم ، و أطبَاعهم الرَقِيقة..

لَيسَ لَدِيهم الوَقت للَعِب ، لا تُشرِق عَليهم الشَمس وُهم على الأسِرة ، لِيس هَنَاك وَقت للضَياع ، كُل مَا فِيهم يُثِيرُ الهِمَم و يَدعُوكَ إلى النُهُوضِ إلى صَباحِ الفَناجِين الغَربِية و أصواتِ سِمفونِيةِ المَقَاهِي المُلوَنة بِكَافَةِ المُقومَاتِ و رَتَابَةِ الصَباح ، و صوتُ قَرقَعَةِ الفَنَاجِين بِينَ أحضَانِ الاوركِسترا و مَقهى تَرعرَعَ على صَوتِ أحَدِ العُظَمَاء ، هُنَا جُوزِيف هايدن ، و هنَاك فرانز شُوبِرت ، و لا

تنسى أنطُوان بروكنر ، و العِملاق غوستَاف ماهِلر ، و النُجُوم الكَلاسِيكيونَ اقتَحَموا مَع ضَوءِ الشُروقِ كُل مَقَاهِي العَاصِمة كَ : أرنولد شونبِيرغ ، و غُوتفرايد فون اينم..

نَعم هُم عِنَدَهُم تَشكِيلة مُلوَنة مِن الأصوَاتِ التي تُقَدم مَع قَهوتِهِم الصَباحِية ، و نَحنُ لا نَقلُ عَنهُم وَزنَاً..

مِن أي بَلدٍ عَرَبِي تُحب أنْ أبَدأُ لكَ يا عَزِيزي القارئ!

اليَمن .. المُوسِيقى في شِبهِ الجَزِيرة العَرابِية .. بِعنوَان:

في اليَمَن الموتُ للجَمِيع و الحَياة لِمَنْ أرَادَ الحَياة..

جَمِيل صَوتَ الموت الخَالي مِن الكُوفييْن ، الخَالي مِن كُلِ مُقَوِمَاتِ الحَياة ، الخَالي مِنَ الحَياة بِحدِ ذَاتِهَا ، لا صَوتَ هَنَا يَعلوا على أزيرِ الدَمَارِ و جَعِيرِ الاقتِتَالِ الطَائِفِي و القَبَلي ، و لا قَهوة تُقَدم كَقَهوةِ الحِدَادِ و الدَمَارِ في إشرَاقَةِ كُلِ صَباح.

الصُومَال .. و المُوسِيقى على ضِفَافِ إفرِيقِيا العَرَبِية .. بِعنوان:

الفِرارِ مِن مَوسِمِ الموتِ لا يُنهِي الجُوع في الصُومَال..

كَم هُو حَنُونٌ صَوتِ الجُوعِ عِند الاستِيقاظ ، و أكثَرُ حَنَانَاً عِندمَا يَكون هَذَا الجُوعُ قَد نَامَ على جُوعٍ أيضَاً ، و لا زَالَ صوتُ الذَاكِرة في أذهَانِ الصُومَاليين خَاصة ، و العَالمِ البطرَانِ عَامَة منذُ سمفُونِيةِ المَجَاعة في عَامِ 2011 م ، التي أودَت بِحَياتِ 250

ألفٍ مِن الأرواحِ المُوسِيقِية ، بَشرٌ مِن كُوكبٍ قَهوتُهم الجُوع و مُوسِيقَاهم المَوتِ الجَمَاعِي أمَامَ عَظَمَةِ الأمعَاءِ الخَاوِية.

العِراق .. و مُوسِيقى المَجَازِر بِينَ آبَارِ النِفط .. بِعنوانِ:

نَزِيف العِراق مُستَمِر و لا تَبدو النِهَاية قَرِيبة..

كَأن دِجلة جَفَ مِن أصواتِ الأحبة و سَمراتِ السَمراواتِ المُخضباتِ بِحناءِ النَجفِ المُبارك ، أينَ قَهوتُكم النِفطِية ، أينَ مُوسِيقى صَباحَاتكم على مَواوِيلِ سَليمة مَراد ، لم نَعُد نَسمع مَن الألحَانِ سِوى المَجازِر ، لم نَعُد نَستنشِقُ مِنهَا سِوى رَوائِح الأرواحِ الرَاحِلة و الأجسَادِ المُتفَسِخة ، لقَد أضحى الوَطن مَقبَرة جَمَاعِية تَحتَضِنُ البُؤسَ بِشُروقهِ و غُروبِهِ..

فِلسطِين .. و مُوسِيقى الإحتِلالِ و بُنِ المُقَاوَمة .. بِعنُوان:

على هَذِه الأرض مَا يَستحِقُ الحَياة ، تَردُدُ إبرِيل ، رَائِحَةِ الخُبزِ في الفَجر ، آرَاءُ امرأةٍ في الرِّجَالِ..

إنَهُ وَجع العُرُوبة و مُوسِيقى الكَلمَاتِ مِن أورَاقِ غَسان كَنَفانِي ، و رَائِحةَ البُنِ المَطحُونِ في دَواوينِ مَحمُود دَرويش ، و تَغَارِيد البَنَادِقِ مِن فَوهَاتِ العَرائِسِ قَبَلَ الزَفَافِ إلى أرضِ الشَهَادة ، و ظِل الأُمهَاتِ خَلفَ مَذبحِ المَسيحِ و بَعدَ مَسرا الرَسولِ ، و مَعراجِ

الرَبِ بِين أوراقِ السَمَاء ، هَكَذا فِلسطِين جُرحٌ و غَصَة في قَلبِ الشُروقِ و قَبلَ قَهوةِ النِضَالِ و مُوسيقَى تُرابِ الشُهَداء..

سُورِيا .. و مُوسِيقى اليَاسَمين الثَائِرِ على الظُلم .. بِعنوان:

فَرشتُ فَوقَ ثَراكِ الطَاهِرَ الهُدُبا

فَيا دِمشقَ لمَاذا نَبدأُ العَتَبا ؟

حَبِيبَتِي أنتِ فاستَلقِي كَأغُنِيةٍ

على ذِراعِي و لا تستُوضحِي السَبَابَا..

سُورِيا لا تُرِيد مُوسِيقى ، يَكفِيهَا هَذا الضَجِيج على ثُراهَا ، يَكفِيهَا نَغمَاتِ القَنَابِلِ و المَذَابِحِ و الدَمَارِ المُؤثث ، تَكفِيهَا رُوائِحِ الكِيمَاوي و هَدِية كُلَ صَباحٍ عِندمَا غَنتْ للوَجَع سَيدةَ الصَباحَاتِ و قِدِيسَةِ الأروَاح الرَقِيقَة فَيروز:

رُدَنِي إلى بِلادِي .. مَع نَسَائِمِ الغَوَادِي

مَع شُعَاعةٍ تَغَاوت .. عِندَ شَاطِئٍ و وَادي

أرَادَ الربُّ أن يُضَمدَ كَوارِثَ هَذا الألم ، فَبعثَ لنَا بَعدَ كُلِ ظَلامٍ صَوتاً مَلائِكِياً أجمَعتْ عَلِيهِ كُلَ فصولِ السَنةِ الصَباحِية ، و حَتى أنواعِ القَهوةِ العَربِية ، فَتحِية إلى ذَلِكَ الصَقِيع الذي يُخمِدُ لَهبَ الحِدَادِ إلى صَوتِ الصَبَاحِ الذِي كَانَ و لا زَال رَمزَاً للشُروق إلى السَيدة فَيروز.

14

لَقدَ تَرَكَتنِي نينا جَالِساً في مَكتَبٍ مُؤثَثٍ بِصُورِ مَن مَروا مِن هُنَا ، تَركَتنِي لتُعِد القَهوةَ الغَربِية التي دَعتنِي إليهَا ، لم أعُد أخَافُ الوحِدة ، و لم تَعُد تُرعِبَنِي كَوابِيسِ الانطُواء ، فَمن اختلى بِذَاتِهِ أربَعِينَ يَوماً لم يَضرهُ المَشي في الصَحراءِ حَافياً أو فَاقِداً مَن أحبَه ، لم تَتَوقفْ عَقارِبَ الأيَامِ على مَن جَاءَ أو مَن ذَهبْ ، بَل سِرتُ وَحِيداً زَادي الشُوقُ و رَاحِلَتِي الأحلام ، و لا زالت قوافِلُ اللهَفة تَجدُ السَيرَ مُسرِعة على رِمَالِ الأشواقِ عَسى لِقاءً قَرِيباً يَضُمُنِي مَع طَيفَهَا..

إنهَا حَنِينْ .. إنهَا أُمِي..

صَدقنِي .. أفتَقِدُهَا..

ثَلاثَ سَنواتٍ منَ المُكَابرَة أمَامِ خَلقِ اللهِ ، و ابتَلاعِ الحُزنِ و الحِدادِ أمَامَ البَشر ، و عَدم نَشرِ غَسِيلِ الضَعفِ و الجَزعِ على مَنشَرِ المُتسَولِين ، هَذهِ التَفاصِيل الصَغِيرة و الحَربِ النَفسِية التي اجتَاحتنِي جَعَلتنِي أخسَرُ كَثِيراً مِنَ الأصدِقاء ، حتَى لا أحد يَكشِفَ عَوراتِ حُزنِي ، و هَلِ الحُزنُ حَرام أم المُبَالغة فِيهِ يُوصِلكَ إلى

مَراتِبِ الانطِواءِ و البَحثِ عَنْ مَن فَقدتَهُم و تَلاشُيهم في غَيَاهِيبِ التُراب!

كَذَبوا عَليَّ فَقَالوا : اضحَكْ فإنَ الحَياة مُستَمِرة و لَنْ تَتَوقَفْ على أحد..

نَعَم إنَهُم كَذَبوا و أنا إلى هَذا التَارِيخ مِنَ الحُزن لا زِلتُ أُقنِعُ نَفسِي ، أو رُبمَا أُحَاولُ أنْ أُصَدق ، و لكِن لا مَفر مِن قَبضَةِ الألمِ.

و أخيراً جَاءتْ نينا، مُحَمَلة بكُوبينِ مِنَ القَهوةِ، دَخَلتْ بابتِسَامَتِهَا الشَفَافَة و صَمتِهَا الخَالي مِن تَلابِيبِ الرَمَاد ، إنهُ رَمَاد الرَقصِ على مَا عَاشتهُ خَلفَ أقفَاصِ هَذِهِ الدَار ، أتسَائل عَن اصفِرارِ الكَلمَاتِ عِندَ تَلفُظِهَا قَبل مَواسِمِ الخَرِيف ، عَنْ تَعبِ النَظَرَاتِ البَارِدة بَعدَ الهُدوءِ ، عَنْ الجَوارِحِ المُشتَعِلة في بِدايَةِ تَجَاعِيدِ سَمعِها ، عَن غُبارِ قَلبِهَا المُكَابِرِ في مِضمَارِ الحَياة ، كَم وتَراً في أحشَاءِ مَشاعِرِهَا ! ، و كَم جُرحَاً عَابِراً على مِلحِ الغِياب ! ، لا أعلم مَا الذِي جَمَعَنْا هَنا.. !

رُبمَا آلامَنَا الحَاسِمة في غِمدِ هَذا الجَسَد بِينَهَا صِلةَ عَوِيل ، فَكلُ مَا فِيهَا مِنْ فَرحٍ فَاضِحٍ على وَجهِهَا يَشي إلى الحُزنْ..

تَعالِي آنِسَتي لِنَجلسِ على طَاوِلةِ اليُتم ، تَعالِي لِنسَكرَ حَولَ فَنَاجِين القَدرِ عَوِيلاً ، تَعَالِي لِنَدُسَ في أجفَانِنَا بَعضَ الدُموع ، تَعالي لنُغدِقَ على مَذهَبَ العَويلِ تَطرُفاً مُبرِمَاً..

جَلسَتْ أمَامِي .. وَضعت القَهوة على الطَاوِلة التِي تَفصِلَ أحلامِنَا ، أخرَجَت سِيجَارة مِن دُولابِ الطَاوِلة و نَظَرت إليَّ قَائِلةً:

ـ هَل تُدَخِن أستَاذ.. !

رَحِمَ اللهُ حَنِينْ ، كَم كَانَت تَكرهُ رَائِحةِ الدُخَان ، و كَم كَانْت تُحذِرُنَي مِن عَواقِبه ، و كَم كَانَت تُغدِقُ عَلِيَّ بِالنَصَائِحِ و النَشَراتِ الصِحِية ، آهْ يا أُمَاه..

نَعم أنَا أُدخِن يا أُمِي ، إنَهُ إكسِير النِسيان ، أو رُبمَا نكوتِينْ التنَاسِي ، مُخفِفٌ لحَرارِةِ العُزلةِ ، مُخفِضٌ لبُرُودةِ الخَسائِر ، يا حَبِيبةَ الرُوح لَقد خَسِرتُ مَا هُو أغلى مِنَ الوَطنْ ، فلم أُعد أسَأل عَن مَاضٍ لنْ يُرَد ، استبدَلتُ كُلَ سِيناريُوهَاتِ المَاضِي بالسَجائِر ، إنَهَا أرحَم بِكَثِير مِنَ الشَكوى و التَذمُرِ أمَامَ مَنْ كَانوا أصدِقاء إذا صَحت الصَدَاقة ، انتَهى العَزاء و رَحَلَ المُعزُون و بَقِيَ عَزائِي الوَحِيد مُجَالَسَةَ سِيجَارَتِي ، فَمنذُ أنْ أهَالوا التُرابَ على وَرَقَتي الوَحِيدة و أنَا أُهِيلُ النُيكَوتِينْ في شَرَايينِ رِئتِي ، فَلتَأتي كُلَ مَضَارِ هَذا الكُونِ و لتِستَبِيحَ مَا تَبقى مِن ألمٍ ، لَقد أصبَحَ هَذا العَالم غَرِيباً

، لم أعُد أرَاهُ بِألوانِهِ القُزَحِية ، و لا رَوائِحَهُ الرَبيعِية ، و لا أنفَاسَهُ المُوسِيقية .. فَكمَا خَطفكِ القَبرُ مِنِي و كَذلِكَ خَطفَتنِي السجَائِر لأتنَاسَى..

و مَن سَوفَ أنسَى يا أُمَاه!..

أنتِ مَثَلاً ! ، أو أنتِ..

و هَل كَانت الحَياة سِوا أنتِ فَقط.. !

و هَذهِ الذَاكِرة لم تَمتلئُ إلا بِكِ ، كُلَ العُطور لم تَعُد تَتَنَاغم مَع مِزَاجِي ، ذَلِكَ الاختِفاء المُرِيب لِروائِحِ شَالكِ لا يُعَادِلهُ عطرٌ حَتى لو أتَى مِن الفِردُوسِ الأعَلى ، أينَ الصَلواتِ التي كَانتْ تَصعدُ مِن مِحرابِ نُورُكِ إلى المَلكُوتِ الأعلى بِلا سُلمٍ مَلموسٍ و على حَبلٍ مَحسوسٍ ، أينَ لَيَالي السَمرِ و النُورِ المُنفَلقِ مِنَ فَمكِ المُعَطر ! ، كَانَ النُورُ اسمُكِ و كُنَا مُترَفُونَ بِضُوئكِ ، مُترَفِين حَد النُجوم المُتنَاثِرة على مُحِيطِ السَمَاء ، هَل أضحَيتِ نَجمَة يا تُرى ! ، نَجمَة تَأتِيني في عَالمِ الأشَواقِ لأستَنِيرَ بِخَيالِهَا.. !

قُلتُ لِنينا:

ـ نَعم بِكُلِ سَرور..

أشعَلتْ لِي سِيجَارة بِتَبرُجٍ مُتنَكِرة، ونَاولَتنِي إيَاهَا..

رُحنَا نَنفُثُ مَع مَا نَحملُ مِن ضَربَاتٍ استبَاقِية للذَاكِرة دُخَانَ المَاضِي ، و كَانت القَهوة خَيرُ جَلِيس في رِحَابِ الأُوكسِجِين المَخلوطِ بدُخَانِ السَجائِر ، أجواءِ مَكتَبهَا أعَادت بي إلى الوَطن ، إلى هَواءِ البِلاد بِرياحِ ثانِي أُكسِيدِ الفَسادِ و شَهِيةِ الدَمارِ ، وَطنٌ مُروَج لكُلِ دُخَانٍ و لِفض بَكَارةِ فَضائِهِ و حَتى أرضِهِ ، لم يَبقَ دُخَان إنْ كَانَ وَطَنِياً أو رُوسِياً أو إيرانِياً أو مَا يُسمَى دُخَانِ طَائِراتِ و قَنَابِلِ أصدِقاءِ سُورِيا و لم نَستنشِقهُ ، فنَحنُ لم نَعُد نَستَطِيع العَيش بِلا وَطنٍ خَالي مِن عَقَاقِيرِ المَوتِ و كُلِ مَا يَدعُوا إلِيهِ القَبر ، و أضحَى الوَطن شَمَاعة و حَقلاً للتَجَارُب ، لم تَبق دَولة في العَالم و لم نُشَارِكهُم دُخَان قَنَابِلِهم ، و إن لم يَكُن لأسلِحَتِهم دُخَان ، فإنَنَا تَشرّفَنا باستنشَاقِ دُخانِ طائِراتِهم ، أصبحَنَا نَتوقع أيَّة دَولة لم نَستمِعَ بِاسمِها لا في التَارِيخِ العَالمِي و لا في جُغرافِيةِ الخَرائِطِ الجَوِية و الإقلِيمِية بِاقتحَامِ حَرمِ الوَطن و فَضَائِهِ لِنشتَمَ ضُراطَ طَائِراتِهم و قَنَابِلِهم الفَتاكة ، لم يَبق عَلِينا إلا أن نستمتِعَ بِدُخَانِ قُنبلة ذَرِية تَجرِيبِية مِن قنَابِل كُورِيا الشَمَالية لتَكتَمِلَ مَعَ الوَطنِ و الشَعبِ ، و لِيرضَى كَلبُنَا الأجرَب بَشارَ الأسَد و حَاشِيته الجَرباء.

هَل سَمِعتَ بِغَازِ السَارَين الكِيمَاوي المُحرَم دُولِياً.. !!

أبَشِرُكَ بِأنَهُ كَانَ لنَا نَصِيب مَحشو بالتَوابِيت مِن هَذا الغَاز ، على أرضِ الوَطن حِيثُ كَانتْ مَلائِكة الله تَتَرصَد الحَدث و على مَقرُبة مِنَ العَاصِمة دِمشق في 12 أغسطس عَامِ 2013 م .. في الغُوطَة الشَرقِية رَاحتْ عِصابَاتِ حِزبِ الإجرامِ الأسَدِية المُتَمركِزة في مَنطِقةِ القَلمون السَاعة الثانِية و ثلاثِينَ دَقِيقة فَجراً بِتوقِيتِ التَخَاذُلِ العَالمِي بِإطلاقِ 16 صَارُوخَاً و بَعدَ سَاعة مِن ذَلِكَ التَوقِيت سَقَطتْ عِدةِ صَوارِيخ أُخرى على الجِهة الشَرقِية لِمَدِينةِ زَمَلكَا الدِمَشقِية و عَين تَرمَا و الزِينِية و عِربِين و معَضَمِيةِ الشَام في الغُوطة الغَربِية .. و على هَذهِ الحَادِثة التي لم تَهز ضَمِير أحدٍ مِنَ العَالم ذَكَرت مُنظَمةِ أطباء بِلا حُدود بِأنَ 355 نَفسٍ بَشَرِية قَد قُتِلتْ نَتِيجة تَسمُمٍ عَصَبي مِن 3600 حَالةِ مِنْ بَعدِ أنْ تَمَ نَقلهَا إلى المُستشفَيَات ، إلى أنَ المُخَابَراتِ الأمرِيكِية أحصت عَدَدَ الذِينَ ارتَقُوا إلى 1466 شَخصاً سورِياً في غُضون سَاعة وَاحِدة..

مُبارك إلى هَذا العَالم الجَبَان بِأخبَارِنَا الكِيمَاوِية ، و مُبارِكٌ عَلِينَا هَذا الدُخَانِ الطازج و المُرِيح للموتِ الفَوري ..

15

مُشتَاق لَهَا..

ذَاتَ صَيف كُنتُ أُقلِمُ أظَافِرهَا تَحتَ أشِعَةِ الأُمُومَة، لا صَوت يَعلو على صَوتِ قَصَاصِةِ الأظَافِر ، كُنتُ أقَدِسُ أظَافِرهَا، وأجمَعَهَا في صَندُوق يَغلِبُ عَلِيهِ أنْ يَكُونَ قَرِيباً مِن صَنَادِيقِ المُجُوهَرات، في صَندُوقٍ خَشَبي مُصَفد بِالصَدَفِ الفَارِسِي تَتَمَدَدُ بِهِ ذِكرَياتٍ لِحَنِين ، مِشطُهَا و عِطرُهَا و كِيسٍ حَرِيرِي فِيهِ قُصَاصَاتِ أظَافِرهَا و شِيٌ مِن شَعرِهَا و شَالِها الشَتَوي و حِجَابُهَا الأسوَد و حِجَابُها المَنزِلي و خَاتَمَ زَواجهَا و بِطَاقَاتٍ شَخصِية و جَوازِ سَفَرِهَا..

تَخَيل بِأنْ تَقطَع الدُول الصَدِيقة بِجوازِ سَفَرٍ و إذنِ فِيزا و تَكَالِيفٍ مَادِية و مَشاقٍ بَدَنِية لا تَكن بِالحُسبان ، مِنْ أجلِ الدِراسةِ أو السِياحَةِ أو الهُروبِ إلى وَطَنٍ بَدِيلٍ..

نَعم وَحدَهُم الذِينَ لم يَرضُوا بالمَذَلةِ قَادِرونَ على أنْ يُغَيروا مَجرَى التَارِيخ و رُبمَا المُستَقبل كذَلِكَ ، و حَدَنَا نَحنُ مَن يَعشَقِ الحُرِية غُرَباء لا وَطنَ لَنَا إلا القُبُور و المُعتَقلاتِ و أوراقٍ بِلا زَادٍ و لا رَاحِلة ، تَتَقَاذَفُنَا الدُولُ الكَبِيرة و الحَقِيرة خَوفَاً على سِياسَتِهم و اقتِصَادِ بِلادِهم إنْ صَحَ القُول ، خَافوا على خُبزِهِم المُغَمسِ بِنَبِيذِ

الخُنُوعِ مِن عُيونِنَا الشَرِهَة على حَسَبِ تَقدِيراتِهم العَفِنة ، هَل نَحنُ دُعَاةِ جِوعٍ يا هَل تُرى.. !!

على مَا أظُن بأنَ الشَعبَ السُورِي هُوَ الشَعب الوَحِيد في الوَطَنِ العَرِبي المُنتِج ، كُنَا و لا زِلنَا نُطعِمُ و نَكسُوا و نَسقِي الدُولِ المُجَاوِرة مِنْ عَرقِ جَبِينِنا ، و تَخَيل بِأنْ تَعمَلَ لِيلاً نَهَاراً حِفَاظَاً على كَرَامِتكِ و عِزَةَ نَفسِكَ و في نَفسِ الوَقتِ يَأتِي لُصُوص الوَطن لِكِي يُقَاسِموكَ لُقمَتك و يُحَاصِصُوكَ رِزقكَ ، لِتنهَالَ عَلِيكَ ضَرائِبهُم التي جَعلُوهَا شَمَاعة لابتِلاعِ مَتَاعِبُكَ على حِسَابِ صِحَتكَ ، و لَم يَبق لِهَذا الشَعبِ إلا أنْ يَفرِضوا عَلِيهِ ضَرِيبة لاستِنشَاقِ الهَواءِ و هَوَ في قَعرِ أكفَانِهِ ، فَمهمَا مَا فَعلتَ سَتبقَى تَدفع ثَمنَ وجُودُكَ على تُرابِكِ ، في بَعضِ الأوقاتِ يَدورُ في مُخِيلتِكَ كَوابِيس مِن كَوابِيسِ اليَقَظَة و في حُلكَةِ يَومكَ و أفكَارٍ للتَحدُثِ مَع نَفسِكَ فَمنْ ضِمنَهَا تَسَألُ ذَاتَكَ سُؤلاً..

هَل نَحنُ نَعيشُ في وَطَنِنَا الأُم بِالأُجرة يا تُرى.. !!

يَجبُ أنْ تُركِز على كَلمَةِ وَطَنِنَا الأُمْ .. ليسَ لأسبَابٍ سِياسِية فَقط ، بَل لِيُتمِنَا الدَائِم على تِلكَ الأحضَان الشَاسِعة بِدفئِ التُراب ، لا تُصدق مِن يَقُولُ لكَ بِأنهُ يَكرهُ وَطنَهُ ، الذِي يَكرهُ وَطنَهُ كَمِنْ يَحقِدُ على أُمهِ ، بَل كَمَنْ ينقِمُ على أُمهِ ، في خِضَمِ السِنِين التي سَتنفَذُ

مِنْ رُزنَامَةِ حَيَاتِكَ و أيَامِكَ المُتَطَايرةِ التي ستضِيعَهَا و تُضِيعَكَ و تَضِيعوا مَعاً في دَوامَتِهَا التي نِهَايتُهَا حُفرَة مِترٍ بنِصفِ مِتر سَتُشَاهِد مُسلسَلاتِ العُقُوق و الرَفسِ و الجُنُون بينَ أبنَاءِ الوَطن للوَطنِ و لقَضَايانَا و لتُرابِنَا و لأُمَهَاتِنَا و لأنفُسِنَا ، فَالذِي يُلقِي بِأبَوِيهِ في دُورِ العَجَزة كَمَن يَبِيعُ وَطَناً ، و الذِي استَغنَى عَنْ حَفنَةِ تُرابٍ أو ابتَاعَهَا للعَدوِ أو تَركَهَا لجَلادِ البِلادِ فليُراجع إيمَانَهُ هَذَا إنْ كَانَ مُؤمِناً بِالأصَلِ ، الإنسَان الذي يُخفِي بينَ أضلاعِ قَلبِهِ ذَرةِ إنسَانِية إذا شَغّلَ عَقلَهُ و أرشَدَ نَفسَهُ إلى الصَواب و جَيّشَ عَواطِفَهُ و مَشَاعِرَهُ إلى الحَقِ و الحَقِيقة سَيعلمُ بِأنَ لَهُ أُمّان..

أُمٌ أنجَبتهُ و أرضَعتهُ و شَارَكتهُ أفَراحُهُ و هُمُومَهُ حَتى اشتَدَ عُودَهُ و أستَقوى عَلِيهَا أو رُبمَا كَانَ بَاراً بِهَا و بِضَعفِهَا و قِلةَ حِلتِهَا..

و أُمٌ وَطأَ تُرَابَهَا و نَشَأَ على خَيرَاتِهَا و كَانتْ حُلُمُهُ و لَعَلهَا لعنَتَهُ فَتَرعرعَ على جَنَبَاتِهَا و شَرِبَ مِن بَرَكَاتِهَا فَعِندمَا ظَهَرتْ عَلامَاتِ الرُجُولة على مَلامِحِهِ أهَانَهَا و و أدَلى بِعُقوقِهِ بِالكَراهِية و العَدَاوة و كَأنَ الوَطن هُوَ سَبَبُ تَعَاسَته..

نَعَم الوَطن الأُم سَبَباً للتَعَاسَة .. هَذا في حَالٍ إنْ صَمتتَّ و رَضِيتَ بالانحِطَاطِ و الخزِي و الرُضُوخِ إلى جَلادِهَا سَتُورِثُكَ هَوانٌ و ذُلٌ لم تُشَاهِد مِثلَهُ مَثِيل..

يا أيُهَا العَاق .. الوَطنُ أُمٌ ، و الأُمُ شَرف ، مَنْ رَأى مِنُكُم أُمَهُ تُباعُ و تُشتَرى بِأثمَانٍ و عُمُلاتٍ لم نَرَهَا مِن قَبلِ بِأسُواقٍ سِياسِية و استثمَاراتٍ اقتِصَادِية مُقنَّعَة أو مُقَنَنَة فَكبِر عَلِيهِ أربَعة تَكِبيراتٍ و لا تُؤمِّنهُ لا بِمَالكَ و لا بِأهلِكَ و لا بِنِفَايَاتِكَ..

وَحدَهَا حَنِين كُنتُ أحضِنُهَا بِكُلِ طُفُولَتِي ، و تَحتَضِنُ براءتِي بِطَهَارةَ قَلبِهَا ، أُمَرغُ ضَعفِي على صَدرِهَا ، كَبرتُ أمَامَ أعيُنَ الأيامِ و لا زِلتُ ذَلِكَ الصَغِيرُ في سَرِيرِهِ الذِي لم يَبلُغَ النُطقَ أمَامَ عَينِ حَنِينْ..

و هَلِ بينَ الأُمِ و الابنِ حَواجِزَ وَهمِية أو حُدُودَاً دُولِية أو عَدَاوةً سِياسِية أو طائِفِية.. !

كَانتْ أحلامُنَا الوَطنِية كَنظرِاتِنَا لأُمَهَاتِنَا ، عِندمَا خَدَعُونَا فَقَالوا بِأنَنَا : أُمَة عَرَبِية وَاحِدة ذَاتَ رِسالةٍ خَالِدة..

نَعَم رِسالة خَالِدة في الظُلمِ و الاضطِهَادِ و الجَورِ و الإسَاءةِ لأبنَاءِ الشعُوبِ ، أجبَرُونَا على بُغضِ الوَطن بِكُلِ وَسَائِلِهم الإبَادِية و اجتِثَاثَاتِهم الفَتَاكة ، الحُبُ في عَقِيدَتِهم إكرَاه و تَضييق ، الإرغَامِ لُعبَتَهُم و الإجبَارُ حِنكَتَهُم و القَهرُ سِياسَتَهُم و الغَلَبة قَضِيتَهُم ، حَتى بِتنَا بِلا قَضِية و لا أمَانِي و لا أحلام وَطَنِية..

في الوَطنِ العَرَبِي:

القَاتِلُ وَاحِد ، و الجَلادُ واحِد ، و السَفَاحُ وَاحِد ، و الدِكتَاتُور وَاحد ، و إنْ تَعدَدَت الأقنِعة ، لا تَسألنِي عَنِ الكَمِ بِعَدَدِ الضَحَايا أو الحَجمِ الهَائِلِ مِنَ الجِراح ، إنَنَا مُخَدَرُون بِجَنِي الأرزَاقِ و جَمعِ الدَراهِمِ و الدَنَانِير ، مُغمَى على قُلُوبِنَا بِحَصرِ التَركَاتِ و حَشوِ الأرصِدة ، لا يوجَد عَدلٌ اقتِصَادِي لا بينَ أفرَادِ الشَعبِ و لا بِين الحُكُومَاتِ المُتَنَاطِحة نِفطِياً و بَحرِياً ، المَثل الفِلسطِينِي المَشهُور يَنطَبِق عَلى الظُلم في أوطَانِ النِفَاق ، القائِلِ:

ـ يَابَا يا بتطخُو يا بِتكسِر مُخُو..

يا سِيدي الحُكُومَات العَرَبِية طَخُونَا و كَسَروا مُخنَا و مُخ أبُونَا كَمَان ، لم يَبقَى شِيء لِنبكِي و نَتَبَاكى عَلِيه ، القَاسِم المُشتَرك بينَ الصُومَالِ و البَحرِينْ هِي العُرُوبَة ، و الفَارِق بِينَهُمَا هُوَ الشَرف ، أقصِد بِالشَرف أنْ تَجِدَ أخُوكَ جَائِعاً و أنتَ مُترَفَاً بِما لَذَ وَطَاب و ثَلاثَةِ أربَاعِ صَحنِكَ يُلقَى في القُمَامةِ و عَلى مَرأى الفَضَائِياتِ العَالمِية هَذهِ هِيَا قِلةِ الشَرف ، و مِنْ السِينَارِيوهَاتِ التي جَعلتنِي أبصُقُ على أحَدِ العَنَاوِين الإلكترُونِية و المَقَالاتِ البَاذِخة في إسرَافِهَا و ذَلِكَ البَطر الذِي نَقرأهُ في قِصَصِ الأرستقرَاطِيين الأُورُوبِيين ذَلِكَ العُنوَان في صَحِيفةِ عَاجِل الإلكترُونِية التي تَقُول :

مِليَاردِير سُورِي سُعُودِي يُقِيم حَفل زَفَاف لابنَتِهِ بِفَرنسَا بِتكلُفَةِ 100مِليُون دُولار..

هَذا العِنوان فَقَط ، أمَا مَا قَالهُ أحد المَدعُوِينَ : كَانَ حَفْلاً لا يُصَدق .. لمَدعُوونَ الأثرِياء الذِينَ جَاؤوا للحَفلِ بِطَيارَاتِهم الخَاصَة اندَهَشُوا مِنَ الإسرَاف و البَذخِ بِالحَفلِ و الذِي فَاق تَصُورُهُم.

نَعم يَا صَدِيقِي نَحنُ مُسرِفُونَ في البَذخِ بِكُلِ مَقَامَاتِنَا الإجرامِية ، تَجِدُنَا سَفَاحُونَ في القَتلِ ، أفَاكُونَ في البَطَرِ ، نُجَوّعُ القَرِيب و نُشبِعُ الغَرِيب ، مُمتَلئونَ بالأحقَادِ الطَائِفِية و التَارِيخِية ، في أوطَانِنَا الأُم المُشبَعة بِدَسَمِ البَغضَاءِ لا تُوجَد الحُلول الوَسَطِية أبَداً ، و إنْ وجِدَت لا تَعِيش ، و إنْ عَاشَت فَإنَهَا مَبنِية على النِفَاقِ و المَصَالحِ الشَخصِية و عَدمِ المُسَاوَاة ..

هُنَا الوَطن .. هُنَا الأُم .

16

قَاطَعتْ نينا سِلسِلةَ أفكَارِي..

ـ أُستَاذ .. أُستَاذ .. أُستَاذ..

كُنتُ أحلمُ بِحَنِين ، أُجَنُ بِهَا تَارة و أُشفَى مِنهَا تَارةً أُخرى ، أسقَطُ مِن نَوافِذِ الذَاكِرة لأتَعثَرَ بِهَا ، بِتَفَاصِيلٍ لم أكُنْ أعلَم بِأنَنِي سَأصِلُ إلى هَذَا الحَرفِ مِنَ الأذَى ، هل مِثلَ هَذِهِ الأحَلام تَجعلُ مِنَ المَرءِ آلةً مَشلُولةً على مُنعَطَفِ الحَياةِ.. !

أحلُم .. و لَكِنْ بِماذا.. !

كُلَ الذِين وَطِئتْ أحلامُهُم سُبُلَ الطُموحِ وَصَلوا إلى بَرِ النَجَاحِ مَرفُوعِينَ الشَأنِ في كُلِ طَبقَاتِ المُجتمعِ المُتَحَضِر ، و لَكِنَ أحَلامُنَا أضغَاثُ أوهَام ، كُنتُ أعِيشُ فيمَا مَضَى في عَالمِ اليَقَظَة مَع حَنِين في تَرفِ الحَياة البَسِيطة و مَبَاهِجَهَا المُعَقَدة ، كُنَا نَبدَأُ يَومَنَا بِقَهوةٍ مَغلِية على أشجَانِ فَيروز ، نَسعَى إلى لَعنَةَ الحَياة حَيثُ أهدَافَنَا الضَئِيلة ، نَركُلُ السَاعَاتِ بينَ أروِقَةِ الجَامِعة بِكُلِ سُخرِية ، نَحمِلُ هَماً وَاحِداً في زِنزَانَةِ وَاحِدة على أرضِ الوَطن ، في المَسَاء و بَعد غَسلِ صُحُون الغَداءِ و بَعدَ صَلاةِ العِشاء ، نَنفُرُ إلى المَقَاهِي العَامة مُشنِفونَ أسمَاعَنَا الثُنَائِية إلى مَا لَذَ و طَاب مِنَ

حَشوِ الأفواهِ المُستَهزِئة بِأحَادِيثِ الغَيبة و النَمِيمَة ، كَانَت الحَيَاة مَسرحَاً للسُخرِية و مَرتَعَاً للوِشَاية و الذَمِ ، و كُنَا فُقراء مِن كُلِ مَباهِجِ الثَقافَة العِلمِية ، كُنَا نَدرُس المَناهِجَ الحُكُومِية مُكرهُون ، و كَانتْ الأحذِية على رُؤوسِنَا تَضرِبُنَا إنْ تَوقفنَا عَن ابتِلاعِ هَذهِ الأمرَاضِ المُمَنهَجة للقَضَاءِ على ما تَبقَى مِن أدمِغة..

مَاذا سَوف أُحَدِيثُكَ على المَنَاهجِ الدِراسِية يا صَدِيقي.. !

ثَمانِي سَاعَاتٍ مِن الكَذبِ خَلفَ مَقَاعِدِ الدِراسَة ، ثَمَانِي حِصَصٍ مِنَ الاستِمَاعِ إلى أتفَهِ مُقَرَرٍ مُزُورٍ مُنتَقى مِن كَافَةِ الأفرُع المُخَابَراتِية و المَكَاتِبِ الأمنِية ، مَاذا سَوف أخبِرُكَ عَنِ المُحَاضِرِين و السَادة الأساتِذة مِنَ المُنَافِقِين و قُطَاعِ الطُرُق مِنَ المُوجِهِين.. !

عُذراً شَوقِي بِمَا نَضَمتَ مِن أبيَاتٍ في شِعركَ المَصُون:

قُم للمُعَلمِ و وَفِهِ التَبجِيلا..

كَادَ المُعلمُ أنْ يَكُونَ رَسُولاً..

لا عَلمِتُ أشرَفَ أو أجَلُ مِنَ الذِي..

يَبنِي و يُنشِأُ أنفُسَاً و عُقُولاً..

أخرَجتَ هَذا العَقلَ مِن ظُلُمَاتِهِ..

و هَديتَهُ النُورَ المُبِينِ سَبِيلاً..

عُذراً أيُهَا الأمِير .. هُنَا سُوريَا مَاتَ فِيهَا المُعَلِمينَ و استبدَلهُم سَفاحِ البِلادِ بِمُجرِمين ، لا شَيءَ هُنَا يَدعُوكَ لِرؤيةِ وجُوهِهِم ، دَائِمَاً كُنتُ مُتَيقِن بِأنَ هَؤلاءِ الحُثَالة مِن ما يُسمَى بِالمُعلمِين لم يَصِلوا إلى هَذِهِ القَاعَاتِ الدِكتَاتُورِية إلا بَعدَ أنْ تَخرَجُوا مِنَ مَكبَاتِ النِفَايَاتِ الاستخبَارِية ، كَانتْ مُخَيلَتِي تَتَخبطُ بِي بِأفكَارٍ مُقتَبَسة مِن مَلامِحِ المُعَلمِين التي يَقطُرُ مِنَها سُمَاً بَعثِياً ، كُنتُ أقُولُ بَينِي و بَينَ نَفسِي..

هَذِه الأقنِعة التي تَدَعِي بِأنهَا رُسُلاً و أنبِياء في العِلم ، كَم تَنكَرت لرِاعِي الأجَرامِ الأولِ و ابتَسمَت لإنجَازَاتِهِ الدَمَوية .. ! ، كَم مِن أيَادي بَارَكتْ و صَفَقَتْ لإمضَاءاتِ تَسلُطِهِ على السُلطَة بِكُلِ حَقَارة .. !

هَل يَصحُ أنْ نَصِفَهُم بأنبِياءِ العلمِ و الأدَبِ! ..

أيُ عِلمٍ و أيُ أدبٍ كُنَا نَتَلقَاهُ .. ! في البِداية يَأتِي الطَالبُ مِنَ المَرحَلة الابتِدائِية بِكَافَةِ عَتَادِهِ الإجرَامِي بِبَدلَتِهِ الزَرقاءِ و شِعَاراتِ حِزبِ البَعثِ القِتَالِية ، و يُسَلم إلى المَسالخِ التَعلِيمِية و التَرَبَوِية بِفطرَتِهِ و عِفَتِهِ ، يَأتي إلِيهم رَغمَ أنفِهِ بِكراً طَاهِراً نَظِيفَ القَلبِ و العَقلِ سَلِيمَ الحَواسِ و المَشاعِرِ ، و يَبدأُ السَادة السَادِيينَ بِفَضِ بَكَارَةَ فِطرَتِهِ و تَعفِيرِ صَفاءِ قَلبهِ و تَلويثِ نَقاءَ عَقلهِ ، كَأنْ يَحشوا

في دِمَاغِهِ عَقِيدةَ حِزبِ البَعثِ و الانقِيادِ إلى صَوامِعَ العُبُودِية و تَوحِيدِ و تَألِيهِ قائِدِ المَسِيرة إلى الرَقِ و الاستِعبَادِ ، سِتَ سَنَواتٍ في المَرَاحِلَ الابتِدائِية بِعَمَلِياتِ غَسلِ الأدمِغة و نَفضِ القُلوبِ و تَوجِيهِ المَشاعِرِ و تَشرِيبِ العَواطِفِ بِبكتِريا رَدَنِ المَذَلة ، و بَعدَ هَذِهِ المَرحَلة يَتَرفَع مِنْ مَرحَلةِ طِفلٍ يَحلُمُ بالأسَاطِير و الأكَاذِيب إلى المَراحِلِ الإعدَادِية..

و يا أسفاه مِنْ مَرحَلة ، تُعَد هَذهِ الثَلاثَ سَنواتٍ مِنَ الضَياع بِمرحَلةِ الأغرارِ ، فَيتَضَاعَفَ فِيهَا التَأنِيب و التَعذِيب و احتِقَارِ الطَلَبة و التَعبِئة المُحَنَكة للتَخوِيفِ و التهوِيل مِن المَسَاسِ بدستُورِ البِلادِ المُقَدَس ، و مَا دستُورِ البِلادِ في ظَنَكَ ! ،

اسمَع .. اسمَع إلى دَستُورِ الوَطن ، و لَكِن لا تَضحكْ و لا تَبكِي ، كُنْ بينَ و بين ، و طَبعاً هَذا الدُستورِ الخَامِس للبِلادِ مِنذُ أنْ وُلِدَت الدَولة السُورِية مِنَ الخِلافَاتِ الطَائِفِية و الإقتِتَالية السَالِفة ، بِمفهُومهَا الحَدِيث عَام 1920 م ،

حَيثُ كَلَفَ الوَرِيث الغَيرِ الشَرعِي ، أ لا و هُوَ زَرافَةَ البِلادِ و سَفَاحِهَا بَشَارِ الأسَدِ ، كَمَا أنَهُ صُودِق علِيهِ باستفتَاءٍ غَيرِ شَرعِي و مَشهَدٍ مِن مَشَاهِدِ المَسرَحِياتِ التَنَكُرِية الذي جَرى في 26 فِبراير مِن عَامِ .. 2012 بِيدَ أنَ المُعَارَضَة الفَارَة مِن مَخَالبِ الإجرَامِ

إلى فَنَادِقَ استنْبولِ و بَطَرِ المُؤتَمرَاتِ الوَهمِية قَد دَعَت لمُقَاطَعتِهِ خِلالِ الانتِفَاضَة الشَعبِية مِنذُ اندِلاعَهَا في البِلاد مِن شَهرِ مَارس مِن عَامِ 2011 م ، و ابنَ الكَلبِ قَد استَبدَلَ الدِستُورِ بَعد أنْ قَدَّمَ حُزمَة إصلاحَاتٍ قَد وَعَد بِهَا أبنَاءَ الوَطَن ، مُحَاوِلاً احتوَاءِ الانتِفَاضَة و إخمَادِ لَهِيبها ، و لَكِن لا مَفر مِن جُوعِ الشَعبِ ، لأنَ الشُعوبِ إذا جَاعت تَأكُلُ مَن يَفرِضُ عَلِهَا ضَرِيبةَ العُبُودِية ، يَنصُ الدُستُورِ الذِي لا يُسمِنُ و لا يُغنِي مِن جُوع على مَا يَلي:

المُسَاوَاة بينَ المُواطِنِين و يَعتَرِف بِالتَنوعِ الثَقَافِي في البِلادِ و يُلزِمِ الدُولة بِحفظِهِ ، و يَعتَبرِ الحُرِية حَقاً مُقَدَسَاً ، و يَعتَبِر الشَعبَ السُورِي جُزءاً مِنَ الأُمَة العَرَبِية و يُتِيح التَعَدُدِية السِياسِية و الاقتِصَادِية و يَنصُ على الفَصلِ بينَ السُلُطَاتِ رَغمَ تَدخُلِهَا بِشَخصِ رَئيسِ الجَمهُورِية كَمَا ذَهبَ إلِيه عَدَداً مِنَ النُقَادِ و الحُقُوقِيين ، و مِن الانتِقَادَاتِ الأُخرى الصلاحِياتِ الوَاسِعة التَنفِيذِية و التَشرِيعِية و في مَجَالِ القَضَاءِ المَمنُوحَة للرَئِيس ، و عَدَمِ مَنحِ البَرلمَانِ صَلاحِياتٍ وَاسِعة كَمنحِ الثِقة للحُكُومة أو المُصَادَقة على تَعِيين الوزَراء و كِبارِ المُوظَفِين ، و حَصرِ التَشرِيعِ بِيَدِهِ بِهَدَفِ تَحقِيقِ تَوازُنِ السُلُطَات التَنفِيذِية ، أيضَاً فَإنَ تَطِبيق الحُرِياتِ العَامة كَمَا نَصَ عَلِيهِ الدُستُور ، فَهُو مُعَرض

بِدورِهِ للتَشكِيك ، إذ أنَ أغلَبَهَا كَانَ مَنصُوص عَنهُ في دِستُورِ عَامِ 1973م ، دُونَ أنْ تَعرِف شَيئاً مِنَ التَطبِيق..

بالعَامِية أرِيد أنْ أقُول لكَ:

شو رَأيك بهالمَهزلَة .. !!

حُزمَة و دِستُور و إصلاحَات و حُرِياتٍ في وَقتٍ رَاحَ ضَحِيَتهُ أكثَر مِن 2000 شَهِيد مِن أبنَاءِ الشَعبِ ، طَيب لَو قُلنَا أنَنَا رَضِينَا بِهَذا الفِلم الدِرامِي بِتَنَازُلاتِهِ العَفِنة .. و لَكِن.. !

مَاذا سَوف نَقُولُ لأُمهَاتِ الشُهَداءِ .. ! ، بأيِ وَجهٍ سَوفَ نُواجِهُ تِلكَ الدِمَاءِ التي لم تَجُف بَعد .. ! ، هَل سَتشفعُ لَنَا ضَمَائِرَنَا إنْ رَضينَا بِحُزَمِ الغَدرِ و الكُفرِ .. ! ، بِاعتِقادِ كُلِ مَن انتَفضَ و ثَارَ ضِدَ هَذا النِظَام الخَرِف بِأنَ ورَقَتهُ لا تَصلُح بَعد خَمسِين عَقداً مِنَ حُزَمِ الفَساد ، و هَل الشَعبُ غَبِي إلى هَذهِ الدَرَجة لِيُصَدِقَ سِينَارِيو المَكرِ و الخَدِيعة ! .. ،

هَكذا حَاكُوا لَنَا ثِيابِ الذُلِ في أولِ مَرحَلَتِين مِن مَراحِلِ الحَياة ، مِن غَسيلِ الأدمِغة إلى إرهَابِ القُلوبِ و العُقُولِ ، و كُلُ هَذهِ الحَركَاتِ المُصطَنَعة تَصُبُ في عِبادَةِ طَاغُوتِ البِلادِ و مَصَالِحِهِ الشَخصِية ، و لَكِن هَيهَات ، إنَهُ كَمَا كَانَ يَقولُ وَالدِي الشَهِيد : حُلم إبلِيس بالجَنة .

17

لا زَالتْ نينا تَحتَ وَقعِ الدَهشَة..

تَتَسَاءل مَاذَا يَجري ! ، لِما هَذَا الصَمتْ ! ، في أي سُبَاتٍ غِيابِي تَغفُو ! ، أعَادَتْ تكرار نِدَائِهَا:

ـ أُستَاذ .. أُستَاذ .. أُستَاذ..

أفَقتُ مِن دِوارِ الذَاكِرة ، و نَشوَةَ المَاضِي ، و لَكِنْ لا زَالَ ضَبابَ حَنِين هُنَا ، بينَ مَسَافَاتِ الجُنُون المُطِلة على نَوافِذِ الحُزن ، أخلَعُ في ظِلِ تُرابِهَا مَبَاهِجَ السَعَادَة و أرتَدي أمَام مِرآةِ ذَاتِي حِدَاد كُل لَحظَة يُتمٍ ، أجبتُ نينا قَائِلاً:

ـ نَعم .. هَل هُنَاكَ شَيء.. !!

اتَجَهَت جَميعِ حَواسِهَا إليَّ ، بِنَظراتٍ صَاخِبَةِ التَعجُب ، و ابتِسَامة خَالِية مِن فِيتَامِينَاتِ الأُنُوثَة ، و بِصَمتٍ مُضَرَمٌ بِبَراءةِ الطُفُولة قَائِلةً:

ـ أينَ كُنتَ .. و لِمَا كُل هَذَا الشُرود الذِي أفقَدَكَ بُوصلَةَ نِدَائي لكَ!.. كَانَ في صَدَى الشُرُود قَواسِم مُشتَرِكَة بينَ صَدى المَكَان ، و بينَ اللا مُبَالاة التي لم أتَقصدَهَا ، و بينَ طَعنَاتٍ قَدَرِية لم أتَعَافَى مِن لَعنَاتِهَا ، كَانت التَسَاؤلاتِ تُقَيدُ هَوسِي بينَ الحَقِيقة المُؤلِمَة و

الوَهمِ العَنِيف ، أكبَرُ تَسَاؤلٍ زَجَنِي في مِضمَارِ الأيامِ البَائِدة هِيَ اللعَنة التي لم أجِد لَهَا جَواباً ، تِلَكَ اللعَنة التي تُدعَى الذَاكِرة ..

ـ هَل الذَاكِرة لَعنَة يا نينا ! ..

زَادَ السُكر في ابتِسَامَتِهَا ، زَادَت أجنِحَة العَسَلِ تَطَايُراً على شِفَاهِهَا ، قَالتْ مُتَسَائِلةً:

ـ و مَا العِلاقَة المُبهَمة بينَ أنْ تُطلِقَ مُخِيلتَكَ إلى اللا مَوجُود .. ! و بينَ لَعنَة الذَاكِرة.. !

كِدتُ أنْ أعتِقَ صَوتِي للبُكَاء ، في مَجرَةِ الذَاكِرة تَتَخفى السَعَادة بينَ لَعنَة و طَعنَة ، و كُلُ مَا في خَلايَاها مِن مَاضِي قَد بَالَ عَلِيهِ الفَنَاء الذِي أجزِمُ بِأنَهُ لنْ يَعُود ، و لِأنَهُ لَنْ يَعُود تَبكِي خَلاياي بِدَمَوِية ، و مَع أنَ عِلمِي و يَقِينِي يُقنِعَنِي بِأنَ مَا دَفَنتُهُ الأيَام في فَناءِ الذَاكِرة لَنْ يَعُود ، فَإنَنِي أُرَمِمُ مَا رَحَلَ و بَقِيت أطيَافَهُم مَنحُوتة على جُدرانِ صَمتِي بِالعَوِيلِ سِراً بَينِي و بَينَ وحدَتِي أو بَينِي و بَينَ شَتَاتِي..

هَل حَنِين مَسرورَة إلى هَذَا الحَرف مِن الوَدَاع .. ! ، و هَل أعجَبَهَا الفِراقُ حَقَاً ؟..

أجَبتُ نينا وأنَا مُكرَهٌ على تَمرُدِ السُؤالِ الغَيرِ مُتَوقَع ، مُكرَهٌ على الكَلامِ الذِي لنْ يُدَاوي الذَاكِرة قَائِلاً:

ـ القَاسِم هُوَ شَقِيقُ اللعَنة و مِن ذَاتِ السُلالةِ التي يَنحَدِرُ مِن رَحِمهَا ذِكرَياتٍ تَجلِدُنَا كُلَمَا أردَاكَ الزَمَنُ وَحِيدَاً بِلى أبٍ و لا أُمٍ ، عَزِيزَتِي نينا أنِت لا تَعرِفي تِلكَ المُعَادَلة التِي تَنمو مَع شَقَاءنَا على دَرَجِ الحَياة المُمتَثِلة بِقُول:

إذَا ضَاقتْ بِكَ الدُنِيا ، و تَكَالبَت عَلِيكَ الحَياة ، و ازدَحَمتْ فَوقَ قَلبِكَ الهُمُوم ، و انقَضَ على نَجَاحِكَ الفَاشِلِين و حُثَالةَ الحَاقِدِينَ و الحَاسِدِين ، و لَم تَجِدَ مِحرابَاً على شَابِهِ حُضنٌ يُسمَى الأُمُومَة ، فَلا تُرهِقَ نَفسَكَ بِالبَحثِ عَنِ البَدَائِلِ ، لا يُوجَد حُضن بينَ أكومِ الأحضَانِ في هَذا العَالم كَحُضنِ حَنِين ، كَحُضنِ أُمَكَ ، هَل تَعِي مَا أقُول يا نينا. !!

كأنَهَا فَهِمَت أو رُبَمَا لمَ تَفهم أو لَعَل لَم تَصِل صَدى عَوَاطِفِي إلى شَفَا مَسَامِعِهَا ، خَيَمَ الهُدُوءُ بُرهَةً منَ بينَ ارتِشَافِ مَا تَبقى مِن حُثَالةِ قَهوة في قَاعِ الفُنجَانِ ، لِتَطرحَ تَسَاؤلاً جَدِيدَاً قَائِلةً:

ـ و الحَلُ إذًا مَاذا سَتَفعَل في هَذِهِ الحَيرةِ المُطلَقة.. !

لا أعلَم مَاذا سَأفعَل بِإطلاقِ هَذَا السُؤالِ الحَادِ في استِدَارَتِهِ ، أأضحَك أم أبكِي أو أملأُ المَكَانَ نَحِيباً.. !!

رُحتُ أُجِيبُ على سُؤَالِهَا بِسُؤَالٍ آخَر:

ـ هَل هُنَاكَ عِلاجَاً للنِسيان مَثَلاً! ..

نِسيَان .. هَذَا الدَواء الذِي يَفتَقِدَهُ يَتَامَى العَالم ، هَذهِ العَقَاقِير القَاتِلة لسَرطَانِ الذَاكِرة بِحَاجَة لَهُ كُلَ مَن فَقَدَ مُحِباً أو عَاشِقَاً أو خَائِنَاً أو ألمَاً أو حُزنَاً أو هَمَاً أو أُمَاً مَثَلاً .. ، نَحتَاجُهُ كَامِلاً مُكمَلاً دُفَعةً وَاحِدة بَلا جُرعَات مُتفرِّقَة ، كَرِهنَا التَقسِيط و التَجزِئة ، فَبينَ مَلائِكَةِ النِسيَانِ و شَيَاطِينِ الذَاكِرة يَقعُ العَقلُ بِكُلِ طَوَاقِم فَرحَهِ و حُزنِهِ ضَحِية في قَبضَةِ أمرَاضٍ نَحنُ بِغِنَى عَنهَا..

مَاذَا أفعَل لِأنسَى ، أنا بِحَاجَة لِكذبَة لا لتُنسِنِي حَنِينْ بَل لأتَفَادى تِلكَ الخَلوة التي تَقطُرُ دَمعَاً دَامِياً و حُزنَاً قَاتِلاً..

هنِيئَاً لمُتعَاطِينَ المُخَدرَاتِ بِكَافَةِ أصنَافِهَا ك:

الكُحولِ و الباربتوراتِ ، و البنزدويازيبيناتِ ، و القَنبِ ، و الكُوكَايين ، و المِيثاكوالونْ ، و جَمِيع المُنشِطَاتِ البَدِيلة..

يَقُولُ العُلَمَاء و البَاحِثُون في مَجالِ الطِبِ النَفسِي بِأنَ أسبَابِ تَعَاطِي المُخدَراتِ سِتَةِ عَنَاصرٍ بِقُوةِ الدَفعِ الرُبَاعِي سَأنشُرُ سُمُومَهَا و فَضَائِلَهَا هُنَا و سَأضِيفُ سَبَبَينِ آخَرَين كونِي مُتَعَاطِياً بِرُتبَةِ لِواء رُكن في إلتِهَامِ الحُقَنِ المُنَبِه للذَاكِرة:

السَبَبِ الأوَل:

انخِفَاضٌ مَلحُوظ في سِنِ التَعاطِي إلى مَرَاحِلِ الطُفُولةِ و يَبدأ مِن العَشرِ سَنَواتِ بَينَمَا كَانَ في السَابِقِ ثلاثِينَ عَاماً.

السَبَبِ الثَانِي:

غِيابِ الدُورِ الحَقِيقِي للوَالِدَين و انعِدَامِ الرَقَابةِ كَمَا يَدُلُ ذَلِكَ على أكثَرِ مِن 80% مِنَ المُدمِنِينَ يَعِيشُونَ في أكنَافِ أُسَرهِم في بَيتٍ وَاحِدٍ في إشَارةٍ صَاخِبة وسَطِ ذُهُولٍ عِلمِيٍ على تَهمِيشِ دُورِ الآبَاءِ

السَبَبِ الثَالث:

هُنَاك قَواسِم وَثِيقة بينَ التَدخِينِ و تَعَاطِ المُخَدِرات حَيثُ أفَادت التَقارِير أنَ 99% مِنَ المُدمِنِين يلتَهِمونَ السَجَائِر مِن بَينِهم20% يُدخِنُونَ أكثَرِ مِن 40 سِيجَارة يَومِياً تَقدِرِياً.

السَبَبِ الرَابِع:

اضطِرابَاتِ الشَخصِية و الانقِيادِ وراءِ أصدِقَاءِ السُوء.

السَبَبِ الخَامِس:

الرَغبَة في التَجرُبَة و حُبِ الفُضُولِ و الاستطَلاع.

السَبَبِ السَادِس:

الفَراغ الذِي يَعصِفُ بِشَبَابِنَا في شَرقِ البُلدَانِ و غَربِهَا و تَراكُمِ المَشَاكِلِ الاجتمَاعِية و الأُسَرِية و هَذَا هُوَ السَبَبِ الرَئِيسِي للانخِراطِ في سِردَابِ الإدمَانِ و المُخدَرَات.

و أمَا مَا أحبَبتُ إضَافَتُهُ من سَبَابِين ألا و هَمَا:

الحُبُ و الحَنِين..

و إن أجتَمع هَذَانِ العُنصُرانِ في قَلبِ مُحبٍ و عِندَهُ جُرعَاتٍ زَائِدة في الحَنِين على مَا شَرحتُهُ مِن أسبَابٍ آنِفة ، فَلا مُطفِئَاً لِحُبِهِ و لحَنَانِهِ حَتى لو استَخرَجَ العَالِم اليَابَاني الكِيميائِي : أوقُاتَا .. مَا هُوَ أقَوى مِن مَادَة الكَبتَاجُونْ المُخَدِرة ، عُذراً هُنُودَ أمِيرِكَا الجُنُوبِية ، فَإنَ أورَاقَ نَبَاتِ الكُوكَايينَ المُخَدِرة زَادتنَا حُبَاً و شَوقَاً لمَنْ رَحَلوا ، عُذراً هِنريك دِريسَا أيُهَا الكِيمَيائِي الألمَانِي إنَ الهُيروينَ الذِي قَدَمتهُ للبَشَرِية زَادَ فِي أروَاحِنَا شَوقاً و عِشقَاً ، و حَتى الهَندِ بِحَشِيشِهَا المُخدِرِ لم و لنْ تُنسِنَا تِلكَ اللحَظَاتِ التي لنْ يَأتي مِثلَهَا ، و مَن تُرِيدَنِي أنْ أنسَى .. ! حَنِين مَثَلاً..

هَا أضغَاثُ أحَلام ، عِشتُهَا و عَاشت في دَاخِلِي كَمَا تَكوَنت أجزَاءَ مَلامِحي في رَحِمَهَا..

الذِي يَنسَى لَبنَ أُمِهِ خَائِنٌ لذَاتهِ قَبل غَيرهِ .

18

نِسيَان

هَذهِ الغَصة بِأحرُفِهَا الوَهمِية

خُمَاسِيةِ الأحرُفِ و لكَأنهَا عُقَدُ مُشعوِذ بينَهَا و بين مَن أرَاد أن يَنسَى بَرزَخٌ لا يَبغِيان ، كَلِمَة مُطلسَمةَ في بَيانِهَا و حِلِهَا و تَرحَالهَا ، كُلَمَا حَاوَلت أن تَتَمَكنَ مِنَهَا ، حَتى رَأيتَهَا تَجرُ أذِيالَهَا هَارِبةً مِن المَضِي ، رُبمَا وُلَدت هَذِهِ الكَلِمة أو هَذَا الوَهم كَكِذبة ، لِترمِمِ انعِكَاساتِنَا السَلبِية تِجَاهَ قَضَايا عَالِقة في خَلايَا الذَاكِرة ، و بِقَدرِ سَعَادتنَا بِتفَاصِيلِهَا التي لَنْ تَعُود ، بِقَدرِ بؤسِنَا بِمُقتَضَياتِهَا التي أغَارَتْ على مِزَاجِنَا في زَحفِنَا إلى انصِهَارِ العُمر ، تِلكَ الحَواسِ المَمشُوقة على عَدسَاتِ أجسَادِنَا رَاحت تَحصِدُ لَنَا الغَث و السَمِين في جُعبَةِ الأدمِغة ، و الطَامَة الكُبرى بِأنَ هَذهِ الأدمِغة التي تُصَوِر لنَا مَشَاهِد مِنَ المَاضِي التَعِيس ، لا يُوجدَ لَهَا حُلُولٍ للقَضَاءِ عَلِيهَا و لا يُوجَد بَرامجٍ مُتَطُورة لإبَادَتِهَا ، كَمَا أنَ عَفَارِيتِ التِقَنِيات المُتَحَضِرة و مَرَدةِ التِكنِلوجِيا بِكُلِ مُعدَاتِهم الحَدِيثة لم يَتَوصَلوا إلى تَطوِير مُعجِزة لمَحوِ ذَاكِرةِ الإنسَانِ و استبدَالِهَا بِهَاردٍ آخَر ، إنَ هَذهِ السِينَارِيُوهَاتِ التي تَقَع في صَحراءِ الخَلواتِ و الذِكرَياتِ لَيسَ

بِبَعِيدة بِأن تَكون شَمَاعَة لاستِدعَاءِ أسرَابِ الأحزَانِ فُرَادا و جَمعَا ، شَمَاعَة لِحَشدِ الهُمومِ و الجَزع كُلمَا أتَت غُيومِ المَاضِي بِبؤسِهِ و ضَجَرِهِ تُمطِر على انكِسَارَاتِكَ مَزِيداً مِنَ النَكدِ و الحُرقة ، إلى أطبَاء الاضطِرابَاتِ النَفسِية ، السَادَة البَاحِثِين في مُختَلفِ التَشُوهَاتِ ذَاتِ الصِلة بِالمِزَاجِ و السُلوكِ و الإدرَاكِ و الفهمِ ، هَل بَينَكُم رَجُلٌ رَشِيد لِيدرِكَنَا مِن بَلاءِ المَاضِي و رَذَائِله و مِن سَقَمِ الذَاكِرة و عِلَلِهَا و مِن عَاهَةَ مَا لنْ يَعُود و دَنَفَهُ ، و كَونِي مُتَطفِلٌ على عَالمِ الأعصَابِ و تَخبُطَاتِهِ الجُنُونِية فأنِي عَاتِبٌ على مَن صَاغ هَذا العلم ألا و هُو الطَبِيب الألمَانِي : يُوهَان كرستِيان رَايل .. الذِي لم يَختَرع بَلسَماً و تِريَاقَاً لِنَنسَى ، و مَع عِلمَنَا و يَقِينِنَا بِأنَ ذَاكِرتِنَا المُشبَعة بينَ الحَنِينِ و القَهرِ لا يُمكِن أن تَزول مِن خَلايَاهَا تُرهَاتِ الزَمنِ الجَمِيل كَمَا يَحلو لِكِبارِ السِنِ أن يُسَمُوها ، فإنَهُم اختَرعُوا لَنَا كَلمِة أو كِذبة لَطِيفة أو خُدعَة أنِيقة اسمها : نِسيان..

هَنِيئاً للمَجَانين في كُلِ أنَحَاءِ العَالم ، هَنِيئاً لَهُم بِجُنُونِهم ، هَنِيئَاً بِمَا يَصنَعُونَهُ مِن تَخبطٍ عَصَبِي و سُلوكِ و غَيرِ سُلوكِي ، أغبِطُهُم و تَصِلُ غِبطَتِي لَهُم حَدَ الحَسد لِذَاكِرتَهم الخَالِية مِن الألمِ و الشُروخِ في الجَوارِحِ و خَرقٍ في المشَاعِرِ و رَضٍّ في الأحَاسِيسِ ، خَالِية

أهَدَافَهُم يَجُوبونَ الشَوارِعِ و السَاحَاتِ و يَقطَعونَ الأزقَةِ و الطُرُقَاتِ بِلا فِيزا للدُخُولِ و لا حَواجزَ أخلاقِية ، لا شَيءَ يُهمَهم سِوا السَيرِ إلى الموتِ ، لا مَلائِكَة على أعنَاقِهم لتَكتُبَ آثَامِهِم و حَسنَاتِهم ، مُثَابونَ بِكُلِ ما يَصنَعُونَ ، مَرفُوعٌ عَنهمُ قَلمَ الجُنَحِ و الجِنَايَاتِ ، لا خَطِيئة تُلاحِقَهُم و لا فَسَادٌ يُحَاصِرهُم ، هُم و الطُيور التي تَخفِقُ في هَذا المَلكُوتِ في أجرٍ دَائم ، بِدايةِ جُنُونهم نُورٌ و نِهَايَتهُ جِنَانٌ و رَبٌ رَاضٍ غَيرُ غَضبَان..

و تَقُولَ لِي تَعالَ نُؤمِنُ سَاعة.. !

كَأنَكَ تَقُولَ لِي تَعَالَ نَتذَكرُ سَاعة ! ..

مَاذَا تُرِيدَنِي أنْ أنسَى مَثلاً .. ! ،

أمُي ! .. ، أمِ الوَطن ! .. أم مَا شَاهَدتُهُ عَينِي مِنْ أحدَاثٍ مَنحُوتة على صُخُورِ الذَاكِرة ! .. ، أم الزِنزَانَاتِ و المُعتَقلاتِ و المُنفَرِدَاتِ التي جَلدَت مِني عُمراً بينَ جُدرَانِهَا و خَلفَ قُضبَانِها! .. أو آلاتِ التَعذِيبِ و الضَربِ و الإهَانَاتِ و الذُلِ الذِي لم يَمرَ عَليَّ في شَرِيطِ حَياتِي ذُلاً بَعده ! .. ، هَل تُرِيدُنِي أنْ أنسَى أبِي مَثَلاً و كَيفَ لاحَقُوهُ و اعتقَلُوهُ و عَذَبُوهُ و رَموهُ بِالرَصَاصِ المُحَرم دُولِياً و ضَمِيرياً ! .. ، هَل تُرِيدُنِي أنْ أنسَى مُواطِنَ اللجُوءِ و خِيامِ

الانحِطَاطِ و كَمِياتِ المَهَانة التي ابتَلعنَاهَا مَع حَرَارةِ الشَمسِ و قَارصِ اللَيلِ على حُدودِ العُرُوبةَ و الهَوان..

كَيفَ أنسَى زَوَايَا مَنزِلي و ظِلالَهُ القُزَحِية ، و تَكَاتُفَ الأغصَانِ التي تَحجبُ زَمهَرِير الوَدَاعِ ، و مِياهِ البَحرِة التي تَجمعُ صَمتنَا ، و ارتِجَافِ اللَيَالي بِطَياتِهِ الصَاخِبة على مُوسِيقى الأُبوةِ..

هَل تُرِيد أنْ أنسَى أُول صَرخَة لِحُرِيتِنَا ! ، أو أول طَلقَة على تَمردِنُا ! ، أو أول شَهِيدٍ على أكتَافِنَا ! ، أو أولُ خَيمَة في تَبعثُرِنَا ، أو دِمَاءِ الشَبابِ التي رَاحَتْ في سَبِيلِ قَضِية كُلِ حُرٍ في هَذا العَالم المُنَافِق ، أو استعمَالِنَا بينَ دِولِ الجِوارِ كَنِعَاجٍ هَزِيلة تُبَاعُ و تُشتَرى في سُوقِ الرَقِ العَالمِي و تَحتَ قُبَةِ أسوَاقِ الأُمَمِ المُتَحِدة لِتِجَارِةِ البَشرِ و إذَاقتَهُم مَزِيداً مِنَ الذُلِ..

كَمَا قَالَ أحَدِ الأصدِقَاء الذِي فَرَ بِأمِهِ إلى لُبنَان الشَقِيق ، و دَقِق معِي على كَلمَةِ شَقِيق جَيداً لأنَنِي سوفَ أخبِركُ مَن هُوَ الشَقِيق:

كُنَا بِدنَا شُوِية كَرامَة بَسْ مِن لُبنَانِيين و بِنِسَى..

و لِكَي نَنسَى قَولاً و فِعلاً ، يَجبُ عَلِيكم أن تَذهَبوا سَادَتِي القُراء رِحَلة لُجوء إلى لُبنَان حَتى يَرسخ النِسِيان على جِلدكُم ، فِعَلاً لَقد ذَاقُوا السُورِيونَ مِن الأمنِ و بَعضٍ مِن حُثَالةِ الشَعبِ المَرِيض

طَائِفِياً و نَفسِياً مِنَ الذُلِ مَا لم يَرَوهُ مِنْ مَجَازِر مُجرمِ الحَربِ بَشَارِ الأسَد..

سَوفَ أتحَدثُ مَعك بِلهجَةِ أشقَائِنَا اللبنَانِيين الذِينَ شَقونَا نِصفَين، نِصفاً للذَاكِرة التي لم ولنْ تُمحَى مِن السِياط التِي جَلدُونَا بِهَا على كُلِ حَاجِزٍ طَائِفي كَانَ أم أمنِي، ونِصفاً قَرَابِين للنِسيان .. نَعم لِكي لا نَنَسى طَبعاً .. ذَلِكَ الذُل الذي نَسانَا حَلِيب أُمنَا في بِلادِ الأرزِ..

ـ بدكْ تِجِي مَعِي يا خَيي !! ..

وقَبلَ تَقرِيرِي المُفجِع والذِي يَسدُ شَهِية الأدَبِ بِحدِ ذَاتِهِ سَأكُتبُ العنَوان التَالي:

.. مَاذا تَرجُو مِن أشِقاءٍ كَإخَوة يُوسُف.. !

استَمع إلى صَدى مَواقِعِ التَواصُل الإجتِمَاعِي وفَضَائِح مَوقع... youtube

إنتَشَرت في الآونةَ الأخِيرة تَندِيدَات مِن قِبَل النُشَطَاء السُوريين على التَصرُفَاتِ الإجرَامِية التي يَقُوم بِهَا مُوظَفُونَ لُبنَانِيون عِند الحُدودِ السُورِية اللبُنَانِية ضِدِ اللاجِئِينَ السُورِيين، حَيثُ أنَ تِلفزيون الجَدِيد لُبنَانِي عَرَضَ مُؤخَراً تَقرِيراً يُوَضِحُ فِيهِ الازدِحَام الشَدِيدِ في مَركَزِ المَصنَع الحُدُودِي، وكَيفَ يَقُوم مُوظَفُ الجَمَارِك البنَانِي وهُوَ يَضرِب اللاجِئينَ السُوريينَ بالسَوط في مَشهَدٍ يَندى لَهُ

جَبين الإنسَانِية، وقِيامِ هَؤلاءِ الحُثَالة الجَرباءِ التي بينَهَا وبين الكَلابِ الضَالة صِلة قَرابة بِثَقبِ الهَوِية السُورِية أو كَسرِ جُزءٍ مِنهَا، مِمَا يَتَسبب بِتُورِيطِ السُورِيين مَع النِظَامِ السُورِي، فَقد جَرت العَادة عِندَ شَبِيحةِ النِظَامِ الإجرَامِية بِثقبِ أو كَسرِ هَوِيةِ كُلِ مَن يَخرجَ بِمُظَاهَرة ضِد حِزبِ السَفاحِ السُورِي لِتمِييزِهِ عَن الآخَرِين في حَالِ تَم القَبض عَليهِ في وَقتٍ لاحِق..

هَذا المَشَهد في بِدَايةِ دُخولِكَ إلى لُبنَانِ الشَقِيق، أتمَنى أن لا تَنسَى كَلمَة الشَقِيق..

إنْ كَانَ مُوظَفُون الحُدُودِ الذِينَ رَضَعوا مِن مَزبَلةِ الحَقدِ هَكَذا !، فَمَاذا تَرجُو مِن وَزِيرِ الخَارِجِية الْبنَانِي الثُعبانِ المُدَلَلِ لَدى النِظَامِ السُورِي : جُبران باسِيل..

يَحرِص هَذا الوَغد في كُلِ مُؤتَمرٍ عُنصُري أو طَائِفي بِأنْ يُسمِعَنَا نُبَاحَهُ، حَيثُ يَحرِص مَعَالي الوَزِير دَائِماً على إستغلالِ أيّة مُنَاسَبة كَانَت مَحلِية أو خَارِجِية للتَحرِيضِ على اللاجِئِين وتَحمِيلَهُم مَسؤولِيةِ الأوضَاعِ الإقتِصَادِية..

نَعم نَحنُ لَنْ نَنسَى الأشقَاء مَهمَا مَا أكَلوا مِن خُبزِنَا و شَرِبوا مِن دَمِنَا و أذَاقُونَا الوَيلاتِ..

هَل تُرِيد أنْ نَنسَى يا صَدِيقِي ؟! ..

19

نُرِيد أن نَنسَى..

كُل شَيءٍ على نَصَاعِ الوَرق يَدعُوكَ إلى النِسيَان، حَتى رَائِحَة الحِبرِ الكِيمَيائِية أجلَت صَفقَة دَعُوة للنِسيان..

إثنَان لنْ يَتَعَافُا مِنَ الذَاكِرة ولنْ يَحلُما بالنِسيان:

من أحبَ بِصدقٍ و مَنْ تَأذى بِكَرامَتهِ..

والعُشَاقُ أصنَافٌ ودَرَجَات أعَلَاهَا حُبُ امَرأة والموت مِن أجَلِ وَطن، فَلا يُلامُ المُحبُ أبَداً لأنَهُ مُغَيبُ عَن الحَقِيقة، ولَكِنْ إن كَانَ الحبُ مُطَابقاً للوَاقِع فَأبشِر أيُهَا المُحب بمَا تَتَمَنى..

نَعم أحبَبتُ الاثنَين، الوَطن هُوَ سُورِيا والمَرأة هِيَ أُمِي..

ولا أقَدِّمُ أحَداً على الآخَر، ولَو كَانتْ حَنِين عِندي أغلى مِن تُرابِ الوَطن، كِلا الحُضنَين نَحنُ بِحَاجة لَهُما ولِدفئِهِمَا ولِحَنَانِهِمَا، حُضنٌ مِن حَنَان وحُضنٌ مِن تُراب، وكِلاهُمَا في مَنطِقِي شَرف، أذُبُ عَنهُمَا بِضَعفِ إيمَانِي، أُدَافِعُ عَنهُمَا بِقَلمِي وأفكَارِي، وكَيف لو وُوري حُضن الأُمُومَة بِحُضنِ تُرابِ الوَطن! ..

فَيصعُبُ عَلِيكَ أنْ تَنسَى، حَنَانٌ وتُرَابٌ مُتَشَرِبٌ في الذَاكِرة، مَحفُورٌ بِخلايَا المَشَاعِر، مُصَابُ بِوحدةِ الوجُود بِهمَا، مَحلولٌ

بِعشقِهَمَا، مَجنُونٌ كَأولياءِ الله المَجَاذِيبِ حَولَ مَقَامِهمَا، هُم سَلوَتِي وخَلوتِي، سَعَادَتي وحُزنِي، قَضِيَتِي وقَومِيتَي، كُلَ أورَاقِي ومَحَابِري، لَيسَ عِندِي هَمٌ إلا هُمَا، في حُلمِي هُم يَقَظَتِي وفي مَنَامِي هُم عُرس أحلامَي..

أُمِي و الوَطن..

لَحمٌ مَحشُوٌ بِحَنَانِ الأُمُومَة، وتُرابٌ يَعزِفُ على مَشَاعِري رَصَاص جِراحِهِ، أولهَمَا شَهِيد والثَانِي جَرِيح، أُمِي والوَطن شَهِيدة مَدفُونَة في قَلب وطنٍ جَرِيح..

قَاطَعتْ نينا أسرَابَ أحلامِي بِسُؤالٍ تَتَوقفُ على إشَارَتِهِ المُرورِية كُل التَوجُسَاتِ الدَاخِلِية ، قَائِلةً:

ـ أنَا أعلَم بِأنَ هَذَا اليَوم هُو عِيد الأُم في البُلدَانِ العَربِية ، و لَكِن بِدُخُولِكَ هَذِهِ الدَار مَاذَا سَتجِدُ هُنَا .. ! طَالمَا مَن أتيتَ مِن أجلِهَا رَاقِدة في لَحدِ الوَطن .. !

ـ رُبمَا أتِيتُ لِأُعِيدَ مَا فَقدت ، رُبمَا سَأرَاهَا في أعيُنِ الأُمَهَات ، في جُدرانِ الأمُومَة، في شَراييِنِ النَقصِ، إنهُ نَقص العَودة إلى الذِكرَيات ..

ـ عَزِيزَتِي نينا بينِي وبَينَ لِقَائِهَا مَسِيرة مَوت فَقط، يُقَالُ بِأنَ المَرء يُحشَر مَع مَن أحب، أردتُ لَمحشَري دِفئاً مُعَفراً بِعطرِهَا، ولَحداً

بِجَانِبِ رَمسِهَا، فَمِنَ الجَمِيل أنْ تَلتَقي الأروَاحُ في بِلادِ الأفراحِ، سَيَكونُ عُرساً عِنَدَ لُقيَاهَا..

سوفَ يَزدَادُ بِالعَينِ بَريقَ الإنشِراح، سَأمشِي على سُكرِ دَربِهَا إلى النُور، هُنَاكَ عِند الله..

هُنَاكَ عِندَ الله ثِقِي بِأنَنَا لنْ تُفَرّقنَا المَسَافَات، ولنْ تُبعثِرنَا القُبور المُتَرامِيات، ولنْ تُغيرَ عَلى قُلوبِنَا الهُمومُ والأسَى..

هُنَاكَ عِندَ الله سَأُسِندُ كُلَ أشوَاقِي على جَدائِلِ نَظَرَاتِهَا، سَنُحَلقُ مَعا إلى كُلِ عِيد، سَتَكونُ هِي عِيدي في كُلِ يوم ولَحظَة..

هُنَاكَ عِندَ الله، لنْ تَكونَ هَنَاكَ أكفَان ولا تَوابِيت ولا لُحُود ولا جُيُوش مِنَ الدُود، هُم مُنعَمُون على سُرُرٍ مُتَقَابِلِين، لِباسُهُم الإستَبرق و لحَرِير، وشَرابُهُم الخَمرة والعَسَل، وأجسَادُهُم يَكسُوهَا النُور..

هُنَاكَ عِندَ الله، تَجمَعُهم المَحَبة، لا قَاتِل ولا قَتِيل، لا مُجرِم ولا مُجرم بِهِ، لا حُرُوب ولا دَمَار، لا فَسَاد ولا استعمَار، لا حِدَاد ولا جَنَائِز..

وكَيفَ لا وهِي شَهِيدة وَطن وشَهِيدة قَضِية وشَهِيدةَ مَنفى !

لَقد قُتِلنَا في قَضِية ظُلم..

نَعَم ظُلم ، مَظلُومُونَ منذُ أربَعينَ عَاماً في سَاحَاتِ الذُلِ والخُنُوع، نُسَاقُ إلى مَسَالخِ التَروِيضِ مُكَبَلِينَ بِالصَمت ولَكِن إلى أين يَا تُرى.. !

إلى الظَلم..

مَظلُومُونَ أمَامَ التَارِيخِ والمُستَقبل المَأهُولِ بِالموتِ، وفي ضِيافَةِ الموتِ والظُلم أنتَ مُجَرد رَقم فَقط، لَنْ أحَد يَأتِي لِنَجدَتِكَ، لنْ يستَمِعُوا إلى زَئِيرِ نِهَايَتِكَ، لنْ يُشَاهِدُوا مُسلسَلات صَلبِكَ، إنهُم مَشغُولونَ بآخرِ المُوضَاتِ العَالمِية والصَرعَاتِ الجُنُونِية .. كَمَا قَالَ لِي أحد المَجَانِين الذِي صَادَفتهُ في شَوارِع الأردُن:

وشُو يَعنِي مَظلُوم .. مَا حَدا فَاضِيلك يابا!!

فِعلاً خُذوا الحِكمَة مِن أفواهِ المَجَانِين ، و عَلى سِيرةَ المَجَانِين يا فَرحَتنَا بِأمِين عَامِ الأُمَمِ المُتَحِدة الذِي وُكِّلَ في القَضَايَا الإنسَانِية على كوكَبِنَا الأُم ، هَذَا المَرِيض قَلَقِياً ، تَخَيل يا عَزِيزِي في بِدَايةِ كُلِ لِقاءٍ صَحَفِي يُبهِرنَا بِإبداءِ قَلَقِهِ الدَائِمِ في مَا يَجري في الدُولِ التي اجتَاحتهَا كَوارثَ الحُروبِ و الفِتَنِ السِياسِية ، يَتَقاضَى كُلَ شَهرٍ 35 ألفَ دُولار فَقط لِيسعِف قُلوبنَا بِقَلقِهِ لبدَائِم جَراءِ مَا يَجري للإنسَانِية، وعِندمَا يَغِيب عَن الشَاشَاتِ والأنظَارِ يُصِيبُنَا القَلق بِسَبَبِ صَمتِهِ، يَعنِي تَخَيل عَدَدَ القَلقَاتِ والإحصَائِياتِ التي

تَجَاوزَ عَدَدهَا في السَنة المَاضِية 180 قَلقة مِنهَا 27 قَلقة لِدولةِ اليَمن وَحدهَا..

420 ألفَ دُولار سَنوِياً مُقَابِل القَلقاتِ التي تَوزَعت على الدُولِ التَالية:

19 قَلقة بينَ فِلَسطِين وإسرَائِيل، 15 قَلقَة لِأُوكرَانِيا، 11 قَلقَة لإفرِيقيا، 9 قَلقَات للعِراق، 6 قَلقَات لِنيجِيريا، 6 قَلقَات لِسُورِيا، 5 قَلقَات لِجَنوبِ السُودَان، 4 قَلقَاتِ لِمَالي..

وإذا تُرِيد أن تَضحَك أنظُر إلى تَعلِيق المُعَارِض السُوري أستَاذنا القَدِير بسَام جَعَارة على مَوقِع تويتَر حَيثُ كَتَب:

بان كي مون قَلِق بِسَبَبِ الجَرائِم التي تَرتَكبهَا قُوات مُوالِية للحُكُومَة العِراقِية .. أخشَى أنْ تُصِيبَهُ جَلطة قَلق..

مَظلُومِين مِن كُلِ الزَوَايَا التي يَجب أنْ يَقَلق عَليهَا مُتَصدِر قَائِمة أقلَق رَجُل في العَالم..

ولَكِن إذا تُرِيد الصَراحَة ، يكَثّر خَيرو الزَلمَة مَا قَصّر..

أي أنَهُ أفَضَل مِنَ الأصنَام العَرب الذِين يَفتَرِشُونَ العُروش والبَلاطِ و لقُصُورِ ورِقَابِ الشُعُوب، وكَأنَ هُنَاك قَانُونٌ سَمَاوي أُوحِيَ إليهِم ينصُ على مَا يَلي:

إن حَكمتَ بِلادٍ عَرَبِية وأردَت الجُلوسِ على حُلوقِ العِباد فَعَلِيكَ أن تَلتَزِم بِثَلاثَةِ أمور، أنْ لا تَسمع ولا تَرى ولا تَتَكلم..

نَعم مَظَالم كَثِيرة في أعنَاقِهِم، ودِمَاءٌ وَفِيرة في سِجلاتِهم، ولَعنَاتٍ جَمَة تَتَراشَقُ في صَحَائِفِهم، بِسَبَبِهم فَقَدنَا السَعَادة والهَناء، سَلبوا مِن بَقَايا النُورِ أرواحاً كَانت بالنِسبَة لَنَا هِيَ الحَياة، لم نُصَدق بِأَنَهُم رَحَلوا، وبِتنَا نَكذب على حِدَادِنَا بِمَقُولةِ:

بُكره أحلى..

هَذَا الغَد الذِي يُطبلُ بِهِ مُغرِدونَ التَفَاؤل لا يَفهَمونَ مَا مَعنَى أن تَفقِدَ مَاضِيك وأحلامِكَ وفَرحَتِك ومُستَقبلِكَ، رُبمَا هُم لَم يَفقِدوا أحداً، أو لَعَلنِي فَقدتُ بِقَدرِ مَا أعطَانِي خَالِقِي مِنَ الصَبر، لَو كُنتُ أَعلم لَمَا وَضَعتُ في جَوفِي صَبراً وخَوفاً مِن فَقدِ أحب النَاسِ لِي ألا وهِيَ أُمِي ..

20

إذاً يا يُمَة..

كُل عَام وأنتِ بِألفِ ألفِ خَير..

هَل كَانَ القَبرُ مُرِيحاً لَيَلةَ أمسٍ!، وهَل كَانتِ الأكفَانُ حَنُونَةً بِنَصَاعِهَا!، أخبِرِينِي كَم مِن نَبِيٍ زَارِكِ، وكَم مِن وَلِيٍ حَجَ إليكِ!، كَيفَ كَانَ لُقياكِ لأبِي، أنَا مُتَأكِدٌ بِأنهُ كَانَ سَعِيداً بِوجُودِكِ، هنِيئاً لَكُمَا لأنكُما اجتَمعتُمَا مرةً أُخرى..

أُمِي الحَبِيبة وسِر سَعَادَتِي وحُزنِي..

لم تَخُنِي الذَاكِرة بَعد، ولم أُصَاب بِألزهَايمَر النِسِيان، وكَانَ ولا زَال بينِي وبينَ الجُنونِ رَشفَة حُزنٍ وأُجَنُ على فِراقِكِ، كُنتُ أَتمَنى لَو أنَ أوراقِي تُراب وَطن لأكتُبَكِ، كُنتُ أحلُمَ لو أنَ قَلمِي مُضرَمٌ بِحبرِ كُحلكِ لأرسُمَكِ، أنتِ وَطَنِي ووَطَني قَد رَحَل..

أُمِي يا مَلاكِي..

أخبِرِينِي عَن مَلائِكَةِ الله، عَنْ خِدرِ الأنوَارِ، عَن لَحدِ الأسرَارِ، ولا تَسألِينِي عَن حَالي، فإنَ الحَالَ مِنَ المُحَال..

هَل تَذكُرِي قَبل الرَحِيل والعَوِيل بِسَبعةِ أيامٍ!، عَندمَا طَلبتُ مِنكِ أنْ ألتَقِطَ مَعكِ صُورة، فَقلتِ لِي:

ـ هَذهِ آخر صُورة لأنَ الأجل قَد اقتَرب وازِفَ الرَحِيل..

بِتُ أتسَاءل كَيف يَعرفُ الشُهَداء بِدُنوي الأجَل.. !

وَضَعتُ:

خَدي على خَدِهَا..

وإلتَقطَ لَنَا الوَدَاعُ آخَر حُزن لَنَا، شَعرتُ بِدُمُوعِهَا عِندمَا لامَستْ خَدي، ورَعَشة الرُوحِ في بِدَاياتِ النِزَاع، ورَاحت تُوصِينِي بِلِسان غَرغَرة المَوتِ:

ـ لا تَدفُنني خَارجَ الوَطن .. رُدَنِي إلى بِلادِي .. إلى تُرابِي..

كُنتُ مَعَهَا صَدِيقَاً وخَلِيلاً ومُسَاعِداً ومُعِينَاً، أُحَلِقُ بِهَا إلى مُستشفيات المَملكَة الأردُنِية الهَاشِمِية، لَعلَنِي أُنقِذُهَا مِن لَعنَة الإصَابة بِمَا حَدثَ لَهَا في الوَطن..

كانت رُوحِي في نِزَاعٍ مَعَهَا ثَمانِيةِ شُهُورٍ، أُطَردُ مِن حُجرَتِهَا التي في العِنَاية المُركَزة، لأفتَرشَ الأرصِفة والطُرُقَات ، لا أرِيد الابتِعَادَ عَنهَا، كَانت تَتَوجع في كُل لحَظة مِئَةَ مَرة، وكُنتُ أتَوجعُ لِوَجَعِهَا ألفَ مَرة، إنَهُ الألم الأقسَى في مَراحِلِ حَياتِي..

كَانَ ألمُهَا يُؤلمَنِي ويُبكِيني .. فَكَانتْ تُلاحِظُ الدُمُوعَ على عَينِي وتَحَاوِلَ أن تُرَمِمَ كَسرَ قَلبِي قَائِلةً:

ـ هَل أنتَ تَبكِي يا أُمِي، لا تَقَلق اقتَربتُ مِنَ الشِفاء.

نَعم إنهَا شُفِيت مِن هَذهِ الحَياة ومِن قَسوتِهَا وشِدةِ ألمِهَا، ولَكِن أنَا بَقيتُ مِن بَعدِهَا أتَألم مِنَ مِلحِ الحُزنِ الذِي تَفشى على جِراحِ الفِراق..

الجُمُعَة الحَزِينَة..

هُنَا، الأردُن، الرمثا، مُستَشفى المَلك عَبدُ الله..

ـ دكتُور كَيفَ حَال الوَالِدة الآن..

لَقَد لاحَظَ الأطبَاء المُشرِفونَ على ملفِ أُمي بِتَدهورِ حَالتِي النَفسِية، فَراحُوا يُضمِدوا الأجوِبة بالأكاذِيب خَوفاً عَلي..

ـ المَدَام هِيام حَالتهَا مُستَقِرة حَالياً لا تَقلق..

ـ هَل استَطِيع الدُخُول إلِيهَا و رُؤيتِهَا دِكتُور.. !!

ـ بِكُل تَأكِيد و لَكِن مَعك 20 دَقِيقة فَقط..

تَخطَت قَدمِي المَمَر الذي يُؤدي إلى غُرفَةِ العِنَاية المُرَكَزة ، كَشفتُ على السِتار .. يا الله مَا هَذا!!

لا تَسأل عَن دُموعِي عِندمَا شَاهدت آخرَ سِينَارِيو لآخِر لَقطَة وهِي تَتَلفظُ أنفَاسَهَا الأخَيرة، بَدَلوا ثِيابَها بِرِدَاءٍ قُطنِي خَفِيف، ووَضَعوا ثَلاثَة خَراطِيم في فَمِهَا، وصَدرَهَا يَرتَفِعُ ويَنخَفِضُ على حَسبِ التَسلسُلِ الزَمنِي للأُوكسِجِين، وشَعرُهَا الحَرِيرِ المُنفَلتُ للسَراب

تَطوِيهُ وِسَادةً بَيضاء، وعَينَانُ شَاخِصَتَانِ للرَحمَانِ تُرتِلانِ الدَمعَ مِن تَحتَ الضَبَاب، على عَزفِ نَاي الأجهِزة يَتَوقفُ النَبضُ فَجأة.. وتَتَوقَفُ الحَياة .. ولَا زِلتُ إلى هَذهِ الشَهقة أقِفُ أمَامَ ذَاتِي، صَمتَ الصَدُر عَنِ الخَفقِ بِحركَاتِهِ الثُنَائِية، وأطلقَت الآلاتِ أعزُوفَةِ النِهَاية..

تَدَافَع الأطبَاءُ والمُمَرِضُونَ إلى الغُرفَة وسَحبُونِي إلى مَا بَعد النِهَاية ، نِهَاية الأعتابِ المَلائِكِية..

خَرجَ طَبِيبَ الموتِ بَعد غَصةِ فَزعٍ، و على لِسانِهِ خَبرَ العَوِيل:

ـ يا ابنِي قَدر اللهُ ومَا شَاءَ فَعل، نَحنُ قَدمنَا مَا استَطَعنَا عَليهِ ولَكِن لِكُلِ أجَلٍ كِتَاب، إنَا للهِ وإنَا إلِيهِ رَاجِعُون، عَظَمَ اللهُ أجرَكُم ونَحسبُهَا عِندَ الله مِنَ الشُهَداء..

أمَا أنا و قَد امتلأتُ..

أضحَيتُ حُسينِياً في قَصِيدِةِ دَرويش:

ـ يا مَوت.. !

ـ يا ظِلي الذِي سَيَقُودُنِي..

ـ يا ثَالِثَ الإثنِين..

ـ يا لَون التَردُدِ في الزُمُردِ والزَبرجَد..

ـ اجلِسْ على الكُرسِي..

ـ ضَع أدواتِ صَيدِكَ عِندَ نَافِذَتِي..

ـ لا تُحَدِق يا قَوي إلى شَرَاييني..

ـ لِترصُدَ نُقطَةَ الضَعفِ الأخِير..

على هَذا الخَبر تَوقفَ العُمرُ بِالنِسبَةَ لِي ، لا أنَا مِنَ الأحياءِ لأمُوت و لا أنَا مِنَ الأمواتِ لأطلُبَ العَودَة إلى سِردَابِ الحَياة..

إذاً تَوقفَ كُل شَيءٍ..

في حَالَة المَرارة يَقَعُ كُلَ شَيءِ..

كُلَ شِيءٍ يَنتَهِي بِتَبسمُرِ الهَواءِ في زَوايَا الحَلق..

لا تَعلم مَاذا سَتفعَل أتنهَار أو تَدع العَويلَ ينهَارُ على الكُونِ في لَحظَةِ ألم، تَوقفتِ عَقَاربِ الحِدسِ على مِضمَارِ الاختِنَاق ، كُلَ شَيءٍ حَولِي يَسألنِي وَقتَهَا:

ـ هَل تُرِيد أنْ تَمُوت أنتَ أيضَاً.. !

و هل بعَد كُلَ الموت الذي اقتَحمَ أبَوابَ حَواسِي مَكَانَاً للسُؤالِ ! ، أنَا مِتُ بالأصلِ و انتَهَت الكَلِمَاتِ في مُقدِمَةِ الرَحِيل..

أدخُل ألقِي نَظَرة عَلِيهَا ..

آآآهٌ و ألفُ آه يا أُمي.. !

يا حَبِيبَتِي، يا صَدِيقَتِي ، يا مَلِكَتِي ، يا كُلَ ذَاكِرَتِي..

كَشفتُ الغِطاءَ عَن وَجهِهَا، وَقَعت عَينِي على دَمعةٍ عَالِقة في الآمَآقِ لم تَخرُجَ بَعد..

وَجهٌ مُبتسِمٌ سَاخِرٌ مُواجِهٌ أمَام عَظَمَةِ و قَذَارَةِ هَذهِ الدُنِيا..

إن قُلتُ بِأنَ وَجهكِ النُور فَقد ظَلمتُكِ يَا خَلِيلةَ الهَوى، أنتِ نُورٌ على نُور..

رُحتُ أنظُرُ إلى قَمَري أتأملُهُ بِالبُكَاء و العَويل ، قُلتُ لهَا:

ـ مُباركٌ يا عُمرِي الشَهَادة ، طِبتِ حَيةً و مَيتة يا أُمَاه..

هَل يا تُرى حَانَ الوَداع..

فَترقرَقت مِنَا الدُمُوع..

و بَقِيتِ ذِكرى في الفُؤاد..

مِنهَا تَحَرقتِ الضُلوع..

في مَغسَلِ المُستَشفى غَسلتُهَا و كَفنتُهَا و صَليتُ عَليهَا في مَسجدِ رِياضِ الصَالحِين في الرمثَا و نَقلتُ جُثمَانَهَا إلى أرضِ الوَطنْ لِتُدفَنَ في مَقبَرةِ الشُهدَاءِ على أرضِ حَوران.

ـ أُمِي .. اليَوم عِيدَ الأُم كُلَ عَامٍ و أنتِ في جَناتِ الفِردَوسِ في نَعِيم.

أتمَمتُ رِواية :

خَدي على خَدِهَا

في بَلَدِ الحُرِية والدِيمُقرَاطِية: النَمسا في عَاصِمَةِ البِيانو والكَمنجة: فيينا ،

في أجمَل مَكَان لَدي : المَكتبة العَامة في الحَي السَابع.

السَاعة 00 : 03 : ، قَبلَ غُروبِ الحُزن.

مِن تَارِيخ . 2017 / 4 / 12 :